

تاريخ
الكتاب



رابندرانات

طاهر

ترجمة : صلاح صلاح

دعني أفرق ، أتوه
في أصاقي منتصف
الليل ، دمع الأرض
تتركني ، طليقاً من
عائق الحجة الترابية
أيتها النجوم الفلبي
بشعاع القمر ،
أرقبي من بعد الأفق
بغمري بأجنحتي .



Bibliotheca Alexandrina

0120424

ذکریاتی

MY REMINISCENCES
BY
RABINDRANATH TAGORE
MACMILLAN PUBLISHERS 1991

ذكريات رابندرانات طاغور

ترجمة : صلاح صلاح

الطبعة الأولى
1995

منشورات المجمع الثقافي
Cultural Foundation Publications

ص. ب. ٢٣٨٠ - أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة - هاتف : ٢١٥٣٠٠
P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U . A . E . - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION

1

تصهيد

لا أعلم مَنْ رسم صور حياتي وطبعها في ذاكرتي ، غير أنه فنان أياً كان . لم يأخذ ريشته ليحاكي ببساطة كل ما يحدث ؛ بل أبقى أوحدف كما يهوى ، كثيرٌ من الأشياء الكبيرة أحوالها صغيرة ، والصغيرة كبيرة ، ولم يتوانَ في استبدال ما في المقدمة بما ورد في الخلفية . باختصار ، مهمته رسم الصور ، لا كتابة التاريخ . يصوغ مجرى الأحداث حياتنا الخارجية ، بينما ترسم سلسلة من الصور في دواخلنا . يتوافق الاثنان ، بيد أنهما ليسا متطابقين .

لا نكرس الوقت للنظر ملياً في هذا النسيج الداخلي ، وإن كنا نلمح بين حين وآخر جزءاً منه ، غير أن القسم الأعظم يبقى لنا مظلماً غير مرئي . لماذا يستمر الرسام في الرسم ، متى سينجز عمله ، وأي معرض مقدر له أن يعرض صوره ، من يستطيع الإجابة ؟ !

دعاني سؤال شخص منذ سنوات خلعت عن أحداث حياتي الماضية ، لاكتشاف حجرة الرسومات هذه ، خيّل لي بأنني سأتوقف بعد اختيار بعض الحوادث من قصة حياتي ، لكن ما أن فتحت الباب حتى

تبين لي أن الذكريات ليست تاريخاً ، بل إبداعات أصيلة للفنان غير المنظور .

الألوان المتنوعة المتناثرة ليست انعكاساً للعالم الخارجي ، بل ملكاً للرسم نفسه ، وتنبع رغبة يشوبها لون خفيف من قلبه ، لذا لاتصلح كتابة سجل على هذا النسيج كدليل في المحكمة .

لكن على الرغم من عدم جدوى محاولة جمع قصة منطقية دقيقة من مخزن الذاكرة ، فإن سحر وإثارة خلط الصور استحوذ عليّ .

طالما نحن على سفر ، ولا نقف إلا لأخذ قسط من الراحة في ملاجئ مختلفة علي جانب الطريق ، فإننا لا نرى هذه الصور ، وتبدو الأشياء ذات فائدة ليس إلا ، حالات وجد متماسكة يصعب تذكرها ، ولا تشرع هذه الصور في العودة إلا عندما يصل المسافر إلى غايته ولا تعود له حاجة بها . وحين يخلد للراحة في نهاية النهار ، تجول في ذهنه كل المدن والمروج والأنهار والتلال التي مر بها في فجر حياته ، هكذا نظرت إلى الخلف بروية ، وانهمكت مستغرقاً في ما رأيت .

هل انبثق هذا الاهتمام من التأثير العاطفي الطبيعي بالماضي فقط؟ طبعاً ، لا بد من توفر ارتباط شخصي ، بيد أن للصور قيمة مستقلة في حد ذاتها .

ليس في ذكرياتي من حدث يستحق الحفظ للأبد ، القيمة الأدبية لا تقوم على أهمية موضوع ، إذا استطعنا جعل كل ما نشعر به بصدق معقولاً للآخرين ، فإنه يحظى بالاحترام دائماً ، إذا تأتى لنا التعبير

بالكلمات عن الصور التي تكونت في الذاكرة ، تستحق عندها مكانة
في الأدب .
لذا ، أقدم صور ذاكرتي كمادة أدبية . ومن الخطأ اعتبارها محاولة
لكتابة سيرة ذاتية ، وإلا فإنها ستبدو حشواً وإطناباً زائداً ، وغير تامة .

التعليم بدأ

كنا ثلاثة صبية ، نشأنا وترعرعنا معاً . كان زميلاي يكبراني بستين . بدأ تعليمي عندما كُلف مدرسٌ خاصٌ بتدريسنا ، غير أنني لا أذكر الآن شيئاً مما تعلمته . ما يستعيده ذهني دائماً هو «المطر يقطط برتابة والورقة تهتز» . سمعت هذا أول مرة عندما رسيت بعد عبور المنطقة العاصفة لسلسلة كاراكاهالا . لقد سحرتني آنئذٍ لكونها أول قصيدة لأجداد كل الشعراء . كلما استعيد متعة ذلك اليوم أدرك ضرورة القافية في الشعر ذلك أن الكلمات تنتهي بالقافية ، ومع ذلك لا تنتهي ؛ ينتهي النطق ولا ينتهي رنينه ، ويستمر العقل والأذن في لعبتهما بطرح القافية جيئةً وذهاباً . هكذا طقطق المطر برتابة واهتزت الأوراق في شعوري ووعي مراراً وتكراراً .

حدث آخر من فترة انبلاج العمر هذه يلتصق بذهني سريعاً . كان لدينا أمين صندوق اسمه كايلاش يعتبر كفرد من أفراد العائلة ، كان في غاية الفطنة ، يمازح الجميع دائماً ويطلق النكات مع الصغار والكبار ، والأنساب الجدد ، خاصة مع المنتمين إلى العائلة حديثاً الذين

كانوا موضع هزته ونكاته . حتى بعد موته ، ساورنا شك في ما إذا كانت روح دعابته قد هجرته . حدث مرة أن كان الكبار منهمكين في محاولة إرسال رسالة إلى العالم الآخر بواسطة لوح صغير معلق به قلم ، يعتقد أنه يكتب لوحده عند لمسه بالأصابع . في إحدى الجلسات خريش القلم اسم كايلاش . سألوه عن نوع الحياة التي يحيها الإنسان هناك . أجاب «لقد وجدت ذلك بشق الأنفس بالموت ، والآن تريدون أيها الأحياء معرفة ذلك عبر طريق مختصر دون فعل أي شيء» .

كان كايلاش يغني بحبوية أغنية هزلية ألفها بنفسه وحطم بها أوزان الشعر لإسعادي . كنت فيها البطل الذي يتشوف بلهفة وترقب وصول بطلة عروس تسلب اللب بجمالها لدرجة أن القدر كان يفتن في حضرتها ، حين أستمع للأغنية تشتعل صورتها لامعة في ذهني . كانت المجوهرات التي تزينها من رأسها إلى أخمص قدميها ، والفخامة التي لم يسمع بمثلها من قبل في الإعداد للزفاف تدير رؤوس من هم أكبر وأكثر حكمة ، لكن ما فتى هذا الصبي وجعل صور الفرح ترقص أمام عينيه هو تناغم القوافي وانتظام الإيقاع .

لا تزال هاتان الإثارتان الأدبيتان في ذاكرتي ، والأخرى أناشيد الحضانة الكلاسيكية «المطر يهطل خافقاً ، والمد يعلو في النهر» .

الشيء الآخر الذي أذكره هو بداية حياتي المدرسية ، في يوم رأيت أخي الكبير وابن أختي ساتيا ، وهو أكبر مني أيضاً ، ذاهبين إلى المدرسة . تركاني وحيداً لأني أصغر من أن أركب عربة أو أغادر البيت ،

عندما عاد ساتيا بقصص مغامراته المفرطة في انفعالاتها عن الطريق ، شعرت أنني لا أقوى على البقاء في البيت ، حاول معلمنا أن يبدد وهمي بنصائح سديدة وصفحة مدوية «تبكي الآن للذهاب إلى المدرسة . عليك أن تبكي أكثر في المستقبل لإخراجك منها .» لا أذكر اسم المدرس ، ولا وجهه ، ولا شخصيته ، لكن انطباع هذه النصيحة الثقيلة وبده الأثقل لم يخبُ بعد . لم أسمع في حياتي نبوءة أصدق من هذه .

قادني بكائي إلى المدرسة الشرقية قبل الأوان . ليست لدي فكرة عما تعلمته هناك ، لكن إحدى طرقهم في العقاب لانتزال ماثلة في ذهني . كان الصبي الذي لا يحفظ دروسه يوقف على مقعد ، ويفرش ذراعاها على امتدادهما وفي كفيه المقلوبين إلى أعلى توضع كومة من الصخور المقطعة على شكل ألواح . دع علماء النفس يناقشون كيف يمكن لهذا الأسلوب أن يستحث فهماً أفضل .

هكذا بدأت تعليمي في سن غض جداً . وجاءت بدايتي في الأدب في نفس الفترة من الكتب الرائجة في مهاجع الخدم ، التي من أهمها كانت الترجمة البنغالية لحكم شاناكيا وأقواله المأثورة وكتاب كريتيافاس «رامايا» ، أذكر بوضوح يوماً كنت أقرأ فيه «رامايا» كانت السماء غائمة وأنا ألعب على الشرفة المطلة على الشارع . على حين غرة ولسبب لا أذكره ، قرر ساتيا إرعايي . صرخ «يا شرطي ، يا شرطي» . كانت فكرتي عن وظائف الشرطي مبهمة جداً ، غير أنني كنت على يقين من

واحدة وهي أن الشخص المتهم بجريمة ، عندما يقع في يدي الشرطي يصبح مثل المسكين الذي يقع في فكي تمساح يغوص ولا يرى أبداً . ولعدم معرفتي كيف يمكن لصبي الهرب من مثل هذا العقاب الصارم ، فررت إلى المقصورات الداخلية والرجفة تسري في ظهري خوفاً من ملاحقة الشرطي . أخبرت أمي عن مصيري المشؤوم الموشك على الحدوث ، لكن ذلك لم يزعجها . رغم ذلك لم أجازف . جلست على عتبة باب حجرة أمي ورحت أقرأ كتاب «رامايا» البالي بغلافه الورقي الشبيه بالرخام والذي يخص عمتها العجوز ، وأمامي تمتد الشرفة المطلة على الجهات الأربع لقناء البيت الداخلي والمتوهجة قليلاً بضموء الأصيل الباهت المنبثق من السماء المكدسة بالغيوم . لبكائي على هذا المنظر الحزين جاءت عمتي العظيمة وأخذت الكتاب مني .

داخل المنزل وخارجه

إلى حد ما ، لم يكن الترف شيئاً معروفاً في طفولتي المبكرة . كان مستوى المعيشة حين ذاك أقل تعقيداً مما عليه الآن . لكن ذلك كان على الأقل يعني أن أطفال أسرتنا بعيدين تماماً عن الاهتمام المبالغ فيه الذي تفرضه العناية الفائقة . الحقيقة أن العناية بالأطفال قد تكون بالنسبة للأوصياء معاملة عرضية ، غير أنها بالنسبة للأطفال تعني قمة الإزعاج .

كنا نعيش تحت حكم الخدم الذين كانوا عملياً يحظرون حقنا في حرية الحركة لينأوا بأنفسهم عن المتاعب . كان ذلك صعب التحمل ، لكن الإهمال أيضاً كان نوعاً من الإستقلال ، الذي ترك عقولنا حرة غير مثقلة ومدللة بكل أشكال الإزعاج المعتادة حول مسائل الطعام واللباس .

لم يكن ما نأكله يمت بأي صلة إلى الطعام الشهوي ، ولباسنا إذا توجب عليّ شرحه بالتفصيل يثير ازدراء الطفل الحديث . لم يكن لنا تحت أي حجة أو ذريعة ارتداء الأحذية أو الجوارب قبل سن العاشرة . في الطقس البارد كان القميص القطني الآخر الذي يلبس فوق

القميص الأول يعتبر كافياً . ولم نفكر بتأناً بأننا سيئو الهندام . كنا نتذمر فقط عندما يغفل الخياط العجوز نعمات وضع جيب على القميص ، لأن الطفل الذي يمنعه فقره عن ملء جيبه لم يولد بعد . ويفضل العناية الإلهية الرحيمة لم يكن هناك فرق كبير في الثروة بين أطفال الفقراء والأغنياء . كان كل منا يملك خفاً واحداً لا نتعلمه دائماً . كانت الأخف بشكل عام تسبقنا ببضع خطوات وتدفعها الأقدام الآتية ، ويكتنف وجودها شك في كل خطوة تخطوها .

حافظ البالغون على وضع مسافة شاسعة بينهم وبيننا في الملابس والمأكّل ، وفي الذهاب والإياب ، وفي العمل والحديث والتسلية . كنا نسرق نظرات فقط من هذه النشاطات البعيدة المنال . اليوم أصبح الوصول إلى البالغين وكل أنواع المتع أمراً يسيراً سهل المنال بالنسبة للأطفال . لم يكن هناك ما هو سهل بالنسبة لنا ، وكثير من الأشياء التافهة كانت نادرة ، ونعيش على أمل ما يخبئه لنا المستقبل عندما نكبر . النتيجة أننا استمتعنا إلى أقصى الحدود بالقليل الذي كنا نحصل عليه ولم نَرْمِ بشيء إطلاقاً من القشرة إلى الصميم . اليوم يأخذ طفل عائلة موسرة نصف ما يقدم إليه ، ويبدد الجزء الأعظم من عالمه .

كنا نقضي أيامنا في الركن الجنوبي الشرقي من جناح الخدم الواقع في المقصورات الخارجية . كان أحد خدمنا يدعى شايم ، ولد أسود ممتليء بخصل مجعدة ، جاء إلينا كأنهما البرد من مقاطعة كولفا . كان يحيط موضعاً يختاره بخط طيشوري بعد أن يضعني فيه ويحذرني

حول أنفسهم بعناية ثم يدورون مرة أو مرتين في الحديقة الخارجية وهم يجمعون الزهور ويمشون الهوينى في اتجاه بيوتهم مشيعين جواً من الراحة في ذهابهم . كل ذلك يستمر إلى مابعد الظهيرة بقليل ، ثم يهجر مكان الاستحمام ويسوده الصمت ، ولا يبقى إلا البط في الماء يغوص لاصطياد قواقع الحلزون ويسوي ريشه بمنقاره باهتياج طوال ماتبقى من النهار .

عندما يسود السكون الماء ، يتركز كل انتباهي على الظلال تحت شجرة التين البنغالية التي شكل بعض جذورها الهوائية الظاهرة المنحدرة على طول جذعها لغات معقدة داكنة اللون على قاعدتها .

كما لو بفعل السحر ، هرب هذا الركن الغامض من نظم القوانين الطبيعية ، كما لو أن بعض عالم الحلم بعيد الاحتمال الذي غرض الخالق عنه بصره مكث في نور الزمن المعاصر . من رأيت هناك ، وماذا فعل هؤلاء الناس ؟ أنا عاجز عن التعبير عنه بلغة مفهومة . إنها شجرة التين البنغالية التي كتبت عنها لاحقاً :

ليلاً نهراً أقف مثل زاهد ناسك بشعر متلبد

هل فكرت حيناً بذلك الصبي الذي لها خياله بظلالك ؟

واحسرتاه على شجرة التين البنغالية المهيبة التي لم يعد لها وجود ، وعلى الحوض الذي كان مرآة لها . كثير من الذين كانوا يستحمون في ذلك الحوض رحلوا أيضاً ، واندمجوا في فيء الشجرة العظيمة . والصبي الذي كبر أرسى جذوره عميقاً ونشرها ، يتأمل الآن في شكل

بوجهه الرزين وإصبعه المرفوع عن مخاطر تخطي تلك الدائرة . لم أفهم بالضبط أبداً إن كان هذا الخطر جسدياً أم عقلياً ، لكن الخوف لأريب كان يمتلكني ، إذ قرأت في «راماينا» عن محن سيتا إثر مغادرتها الدائرة التي رسمها لأكشمان ، لذا لم أشك لحظة في قوة وفعالية الدائرة المحيطة بي .

تحت نافذة تلك الغرفة تماماً ، ثمة درج يهبط إلى حوض استحمام على ضفته الغربية بمحاذاة حائط الحديقة شجرة تين بنغالية ضخمة . في الجهة الجنوبية كانت توجد أشجار جوز الهند . مثل سجين في زنزانة ، كنت أقضي كل النهار أنظر عبر مصراع النافذة الفينيسية محدقاً في هذا المشهد كما لو أنه صورة في كتاب ، من الصباح الباكر يتوافد جيراننا واحداً إثر الآخر للاستحمام ، كنت أعرف وقت وصول كل منهم ، وغرابة عاداتهم في التنظيف والتبرج . واحد يقفل أذنيه بأصابعه عندما يغطس بانتظام ثم يرحل ، آخر لا يغامر بغطسة كاملة ، بل يكتفي بتكرار عصر منشفة مبلولة على رأسه . ثالث ينفض بحرص سطح غبار القاذورات عن نفسه بضربات سريعة بذراعيه ، ثم يغطس فجأة ، آخر يقفز من الدرجات العليا دون أي مقدمات ، في حين يهبط آخر درجة درجة ببطء وهو يتمتم صلاته الصباحية . ثم كان هناك من هو دائماً في عجلة من أمره يهرول إلى بيته بسرعة حالماً ينتهي من غطسته ، وآخرون على عكسه تماماً يتبعون حمامهم الممتع بتدليك جيد ويبدلون ثياب الاستحمام المبتلة بأخرى نظيفة جافة ويلفون المنزر

الظل وضوء الشمس في السراء والضراء اللتين تلقيهما هذه الخصلة
المتشابكة .

لم يكن من المسموح لنا مغادرة البيت ، بالأحرى كنا نمنع حتى من
الركض داخل البيت . كان علينا أن نلمح الطبيعة من خلف الحواجز .
وراء متناولي كان يمتد الشيء اللامحدود المسمى الخارج الذي تأتي
ومضاته وأصواته وشذاه حيناً وتلمسني بين فينة وأخرى . كأنه يود أن
يفغويني عبر مصراع النوافذ بإيماءات متنوعة ، غير أنه طليق وأنا مقيد ،
وما من سبيل للقائنا ، لذا كانت جاذبيته أقوى . اليوم زال أثر الخط
الطباشيري ، إلا أن الدائرة المقيدة لا تزال قائمة . لا يزال الأفق بعيداً وما
خلفه وراء متناول اليد . يذكرني هذا بالقصيدة التي نظمتهما عندما
أصبحت أكبر :

كان الطير الأليف في القفص ، والطلق في الغابة
شام القدر أن يتقابلا يوماً

صاح الطير الحر «دعنا نطير إلى الغابة يا حبيبي»

همس طير القفص «تعال هنا ، دعنا نعيش معاً في القفص»

قال الطير الحر «بين القضبان حيث لا مكان لنا لفرش أجنحتنا؟»

«واحسرتاه» أجاب طير القفص «أنا لا أعرف أين أحط في السماء» .

كانت حواجز شرفة سطح بيتنا أطول مني . كنت أصعد أحياناً إلى
هناك في منتصف النهار ، عندما أصبحت أطول قامة وخف استبداد

الخدم ، وعند وصول عروس جديدة إلى البيت وحصولي على اعتراف كمرافق لها ، في تلك الساعة يكون كل من في البيت قد انتهى من تناول وجبته ، وحلت فترة راحة من أشغال البيت ، وخيم هدوء القيلولة على المقصورات الداخلية ، في حين تعلق ملابس الاستحمام المبتلة على حاجز الشرفة لتجف ، وتلتقط الغربان من كومة المخلفات الملقية في ركن الحديقة فتات الطعام ، وفي عزلة يتواصل طير القفص والطير الطليق بمنقاريهما .

كنت أحب الوقوف والنظر ، تقع عيوني أولاً على صف شجر جوز الهند في أقصى حديقتنا الداخلية التي أرى عبرها حديقة سنجهي بمجموعة أكواخها وحوض استحمامها على حده ملبنة حلابتنا تارا ، وخلف ذلك تختلط بدوائب الأشجار الأشكال المختلفة والمستويات المتباينة لشرفات أسطح كلكتا المشعة تحت بياض شمس منتصف الظهيرة ، والممتدة بعيداً والمتداخلة بالزرقاء الرمادية للأفق الشرقي . تبدو بعض هذه المنازل البعيدة التي يخرج منها درج مغطى إلى السطح مثل أصابع مرفوعة توحى إليّ بغمزة توحى بوجود ألغاز في الأسفل ، يتخيل المتسول الواقف على باب القصر وجود كنوز مستحيلة في حجره الحصينة . من العسير عليّ وصف روح الحرية والمرح التي تثيرها هذه المنازل المجهولة في نفسي . في أقصى أعماق المساء المكتظة بضوء الشمس الحارق ، قد يتأتى لي بصعوبة اكتشاف الصرخة الحارة الراهنة لطائرة ورقية ، ومن المر الضيق المهادي لحديقة سنجهي تمر البيوت

الهاجعة في سبات الظهيرة ، وتتردد طافية أغنية بائع الأساور
والخلاخل الرتيبة -أساور ، خلاخل ، أساور- في مثل تلك الأوقات
يطفو أيضاً كامل كياني بعيداً .

كان والدي في ترحال دائم ونادراً ما يتواجد في البيت . لذا تبقى
حجرة في الطابق الثالث مقفلة . كنت أمر بيدي على مصارع النوافذ
الفينيسية ، أفتح مزلاج الباب وأقضي ما بعد الظهيرة مستلقياً على
الأريكة في الجهة الجنوبية دون حراك . كون الغرفة المقفلة دائماً مثيرة ،
ومن ثم إغراء الدخول المسروق بنكهته الغامضة ، وأخيراً لأن الشرفة
الخارجية المهجورة تسطع عليها خيوط أشعة الشمس ، كل ذلك أطلق
عنان أحلامي .

ثمة شيء فائن آخر . لقد شرعت محطة المياه في كلكتا في العمل ،
ولم تحرم من تدفق مياهها المظفر حتى المناطق الهندية . في ذلك الزمن
الذهبي كانت أنابيب المياه تصل حتى إلى حجر والدي في الطابق
الثالث . كان لي بفتح صنبور دشه أن أخذ حمام يجلب الغبطة إلى
قلبي في أي وقت أشاء ، ليس ذلك بسبب الحس بالماء فقط ، بل
لإشباع رغبتي في فعل ما أهواه . جعل تزامن الابتهاج بالحرية والخوف
من اكتشاف أمري ، دش ماء البلدية هذا يبدو كسهام من المتعة .

ربما لأن إمكانية الاتصال بالخارج كانت بعيدة ، فإن إثارتها جاءت الي
بأسرع ما يمكن . حين تحيط بنا الأشياء وتكون في متناول كل يد ،
يصيب العقل الخمول ويوكل المهمات بالآخرين وينسى أن فرحة العيد

تعتمد على الغذاء الذي تقدمه الخيلة أكثر من الأشياء الخارجية . هذا هو الدرس الأساسي الذي على الطفولة أن تعلمه للإنسان . من ثم تصبح ممتلكاته قليلة وتافهة ، إلا أنه لا يحتاج لأكثر منها حتى يكون سعيداً . بالنسبة للطفل غير المحظوظ الذي يملك عدداً لا يحصى من الألعاب ، عالم اللعب مُفسدٌ .

دعوة حديقتنا الداخلية حديقة ، تتجاوز بعيد عن الحقيقة ، فهي تتألف من شجرة كباد وبعض أشجار الخوخ المختلفة وصف من شجر جوز الهند . في وسطها دائرة مبلطة مشققة هاجمتها الأعشاب والحشائش البرية ونسجت فيها راياتها المظفرة . الزهور التي رفضت الموت رغم إهمال البستاني ، هي التي استمرت في أداء مهمتها فقط ، في الركن الجنوبي سقيفة نزع قشر الأرز التي يحتشد فيها سكان المقصورات الداخلية عند الحاجة . انهزم هذا الأثر الأخير للحياة الريفية في كلكتا وانسل خلسة بعيداً بصمت .

رغم ذلك لا أظن أن جنة عدن كانت أعظم من حديقتنا ، لأن آدم كان عارياً كجنته ، ذلك لأنهما لم يكونا بحاجة لزخرف الأشياء المادية . فقط منذ أن تذوق ثمرة شجرة المعرفة وحتى الوقت الذي استطاع فيه هضمها أصبحت حاجة الإنسان للزخارف الخارجية تسيطر عليه . كانت حديقتنا الداخلية فردوسي ونقي بحاجتي .

أذكر بجلاء كيف كنت أركض إليها حالماً أستيقظ مبكراً في فجر الخريف ، فتسرع في استقبالي نفحة الأعشاب وأوراق النبات الندية ،

ويختلس الصباح بضوئه المنعش مني لمحة من على جدار الحديقة الشرقية ومن تحت شُرابات أشجار جوز الهند المرتعشة .

ثمة قطعة أرض خالية أخرى في شمال البيت لاتزال حتى يومنا هذا كنا ندعوها «جولاباري» . يدل الاسم عل إنها كانت في زمن ماضٍ بعيد الزرية التي يخزن فيها محصول السنة من الحبوب . في تلك الأيام كانت القرى والمدن تشبه بعضها بعضاً مثل الأخ وأخته في الطفولة . الآن يصعب تقصي الشبه في العائلة . كانت هذه القطعة مأواي في أيام العطل . لم أذهب إليها لألعب ، بل لان المكان بحد ذاته جذبني إليه . لماذا؟ من الصعب الإجابة . ربما يعود سحرها لكونها قطعة أرض يباب مهجورة في الركن البعيد من الحديقة . لم يكن لها وظيفة فعالة لأنها خارج الجزء المستعمل ، علاوة على إنها عديمة النفع مثلما هي غير مزينة ولم يزرع أحد فيها شيئاً إطلاقاً . كانت قطعة أرض مهجورة . لاريب أن هذا ما أطلق لخليلة الصبي عنانها . كنت كلما رأيت منفذاً من يقظة حارسي أذهب إليها بأي وسيلة ، آنثد يخالبني شعور بانني في عطلة حقيقية .

مع ذلك بقيت منطقة أخرى في بيتنا لم ألحج في اكتشافها ، أطلقت عليها طفلة صغيرة من أترابي ورفيقة في اللعب اسم «قصر الملك» . كنت هناك من لحظة «كانت تقول لي أحياناً ، لكن لسبب أو لآخر لم تسنح لها الفرصة إطلاقاً لأصطحبهاي معها إلى هناك . قيل إنه مكان رائع فيه دُمى خرافية مثل الألعاب التي تلعب هناك . خيّل لي أنه في

مكان قريب ، لعله في الطابق الأول أو الثاني ، غير أنني عجزت عن الوصول إليه .

كم مرة سألت صديقتي «اخبريني فقط ، هل هو في داخل البيت حقاً أم خارجه؟» ودائماً تجيب «كلا ، كلا ، إنه هنا في هذا البيت .» كنت أجلس وأتعجب «أين؟ أين؟ ألا أعرف كل حُجَر البيت؟! لم أكرث إطلاقاً لآخري من هو ذلك الملك ؛ بقي قصره غير مكتشف حتى يومنا هذا ، وكل مانعرفه أنه موجود في بيتنا .

حين أنظر للخلف إلى طفولتي ، يترأى لي أن الفكرة المهيمنة أكثر من غيرها هي أنني كنت محاطاً بالغموض . شيء لم يحلم به كان متوارياً في كل مكان وكان السؤال الملح « متى ! أواه متى سنصادفه؟» كما لو أن الطبيعة قبضت على شيء في يديها وسألت مبتسمة «ماذا تظن بحوزتي؟» لم تكن لدينا أدنى فكرة لإمكانية وجود حد للإجابة .

أذكر بجلاء شجرة سفرجل هندي زرعتها وسقيتها كل يوم وحافظت عليها في ركن الشرفة الجنوبية . أبقتني فكرة أن بذرة قد تنمو فعلاً لتصبح شجرة في حالة ترقب هائج . لاثزال بذور السفرجل الهندي حتى يومنا تتبرعم وتنمو بسرعة ، لكن دون شعور التعجب والاستغراب الملازم . لايقع الخطأ على كاهل شجرة السفرجل وإنما علي تفكيري .

سرقنا مرة بعض الحجارة من حوض زراعة ابن عم أكبر منا ، وعمرنا واحدة صغيرة خاصة بنا ، أولينا النباتات التي بذرناها في صدور

حرضنا اهتماماً كبيراً لحد يمكن فيه للخضار الرواقي* فقط أن يبقى حياً . تعجز الكلمات عن التعبير عن الإثارة التي خلقتها هذه الراية الصغيرة في نفوسنا . لم نشك لحظة في أن ما خلقناه يستثير الكبار ويحوز على إعجابهم . لكن في اليوم الذي حاولنا فيه إثبات ذلك ، اختفت راييتنا بكل صخورها وخضارها من ركن حجرتنا .

صدمننا للطريقة الجلفة اللفظة التي أفصح لنا بها أن أرضية غرفة المدرسة ليست القاعدة المناسبة لبناء راية زراعية . حط ثقل ماثل للحجارة التي رفعت عن الأرضية على عقولنا عندما أدركنا سعة الهوة التي تفصل أحلامنا عن إرادة من هم أكبر منا سناً .

يا لحدة نبض الحياة بالنسبة لنا !! الأرض والماء وأوراق النبات والسماء كلها خاطبتنا ولم تؤخذ بعين الاعتبار . كم مرة صدمننا وأصابنا الندم الشديد لأن ميسورنا رؤية السطح العلوي للأرض فقط دون أي معرفة ببواطنها !! وجهت مخططاتنا إلى تفحص ما تحت غطائها الغباري الملون . لو قدر لنا أن نحفر بخيزرانة تلو الأخرى ، واحدة فوق الأخرى ، لربما كان بإمكاننا أن نلمس أعماق أعماقها .

خلال احتفال Magh ، كانت توضع سلسلة من الأعمدة الخشبية حول الساحة الخارجية لدعم الثريات . يبدأ حفر حفر لهذه الأعمدة في أول أيام الاحتفال . يشير الإعداد للاحتفالات الأطفال في كل

* الرواقي : نسبة إلى مذهب زيتون الفلسفي القائل بأن علي الإنسان الحكيم أن يتحرر من كل أنواع الانفعالات وأن يخضع لحكم الضرورة القاهرة (المترجم)

الأمصار ، لكن لعملية الحفر هذه نكهة خاصة بالنسبة لي . رغم مشاهدتي لها سنة تلو سنة ورؤية الحفرة تكبر وتصبح أعمق حتى يختفي فيها الحافر تماماً ، فإن ذلك شيء عادي ، ولم يظهر شيء يستحق البحث عن أمير أو فارس ، لكن في كل مرة كان يلزمي شعور أن طبقة مترفع لتكشف عن صندوق فيه كنز . لاريب أن حفراً أعمق بقليل سيكشف عن ذلك ، تتالت السنين ولم يثمر الحفر الأعمق شيئاً . خدش حجاب الغموض لكنه لم يرفع . لماذا يرضى الكبار القادرون على فعل كل مايودون بمثل هذا الحفر الضحل ؟ ! لو أننا جيل الصغار ، نملك ناصية الأمور ، لما ظلت أعمق ألغاز الأرض مخفية لأمد طويل .

أثارت مخيلتنا أيضاً فكرة أن خلف كل جزء من قبة السماء الزرقاء تقيع أسرار السموات . صبعنا يوم أراد مدرسنا أن يوضح بعض الدروس من كتاب العلوم التمهيدية البنغالي وأخبرنا أن السماء ليست نجماً أزرق محدوداً . قال « ضع سلماً فوق الآخر واصعد عليها ولن يضرب رأسك أبداً » قلت في سريرتي لا بد أنه يعني سلالمه ، وجهرت بصوت ذي نبرة ساخطة « وماذا لو وضعنا سلالم أخرى أكثر وأكثر ؟ » . عندما أدركت أن وضع السلالم فوق بعضها البعض عملية غير مثمرة ، صعبت . طبعاً توصلت بعد تأمل كبير إلى أن مثل هذه الحقيقة الصاعقة هي جزء من سر معرفة المدرسين المعروفة لديهم فقط .

4

سلطة الخدم

لم يكن نظام حكم سلالة الخدم في تاريخ الهند نظاماً سعيداً . في تاريخي الشخصي لا أجد أمراً مبهجاً أو مجيداً لسرده حول عهد الخدم . حدثت بعض التغيرات في الحكام ، لكن لم يكن هناك قطعياً أيما فارق في قوانين الكبح والعقاب التي ابتلينا بها . لم تسنح لنا الفرصة آنئذ لفلسفة الموضوع ؛ لقد تحملنا بكل ما في وسعنا الضربات التي حلت على ظهورنا ، وارتضينا كأحد قوانين الوجود أن الكبير يؤذي والصغير هو الذي ينزل به الأذى . استغرقتني الفكرة المعاكسة بأن الكبير يعاني والصغير هو الذي يسبب العناء مدة طويلة لتعلمها .

لا ينظر أي صياد مهما كانت غايته إلى الأمور من وجهة نظر الطير وعليه فإن الطير يقظ الذي يحذر سرب الطيور بصوت عال قبل أن يُطلق عليها الرصاص هو من يزجر بقسوة . حين نضرب نولول ، الأمر الذي لا يقره مؤدبوننا ؛ من وجهة نظرهم هذا تحريض علي الفتنة ضد سلطة الخدم ، كم أذكر محاولاتهم لكبت عويلنا بحشر رؤوسنا في أقرب إبريق ماء . لاريب أن صرخات احتجاجنا كانت مزعجة جداً لحد لم يكن بوسع أحد تجاهلها . اليوم ، أتساءل أحياناً لماذا كان الخدم

يعاملوننا بمثل هذه القسوة !! لا أستطيع أن أقر بوجود أي بادرة في سلوكنا العام وتصرفنا يستوجب وضعنا خارج حظيرة اللطف الإنساني . يعود السبب الحقيقي إلى إلقاء عبء حملنا كله على عاتق الخدم ، الأمر الذي يصعب تحمله حتى من أقرب الناس إلينا وأعزهم علينا . لو سمح للأطفال بأن يكونوا أطفالاً ، يركضون ويلعبون ويشبعون حب استطلاعهم ، لأصبح وطء العمل أخف بكثير . تحل المشاكل التي يستعصي حلها إذا حاول شخص حجز الأطفال في الداخل وإبقاءهم ساكنين أو إذا منعهم من اللعب ، عندها تصبح الطفولة مرهقة وتلقي بثقلها على كاهل المربي مثل قصة الحصان الذي يحمله الجمالون عوض السماح له بالعدو على قدميه ؛ ورغم أن النقود قد تشتري حمالين حتى لحصان ، فإنها لا تستطيع أن تمنعهم من صب جام غضبهم علي الحيوان سيء الحظ في كل خطوة .

لا أذكر عن طغاة طفولتنا إلا الصفع واللكمات ولا شيء آخر . واحد فقط شد عنهم ، كان اسمه أشوار ، وعمل مرة كمعلم في مدرسة قروية . كان متأنقاً ، حضيف الشخصية ، وقوراً واعياً للتقاليد الدينية وتعاليمها . كانت الأرض تبدو له فظة وماؤها أقل من أن يحفظها نظيفة . لذا انهماك في حرب ضروس ضد قذارتها المزمنة . يلقي بدلو مائه في الحوض بحركة سريعة حتى لا يأخذ حاجته من القعر الملوث ، ويبعد القاذورات من على سطح الحوض قبل أن يغطس فيه فجأة حين يستحم ، محاولاً أخذ الماء على حين غرة ، كانت ذراعه اليمنى ترتفع

لتشكل زاوية مع جسده حين يمشي ويحلون لنا أن نظن أنه لا يثق بعلم الصحة ولا حتى بملابسه ، ليلاً نهاراً يضع نفسه في وضع دفاعي دائم ضد أشكال التلوث غير المحدودة التي قد تتسلل عبر خطوط دفاعه وتفسد اتصاله بالأرض والماء والهواء وجعل أدنى اتصال لجسده بالعالم أمراً لا يطاق .

كان وقار سلوكه غير قابل للفهم . يلفظ الكلمات المختارة بعناية وتصنع بصوت جهوري ورأسه منحني قليلاً . كان أسلوبه الأدبي مدعاة للضحك عند بالغى أسرتنا ، وبعض اصطلاحاته الطنانة منتشرة في عائلتنا كملح ظريفة . لست واثقاً من كون تعبيراته غريبة اليوم ؛ إذ اللغة الأدبية واللغة المحكية اللتين كانتا متباعدتين بعد الأرض عن السماء ، تبدوان اليوم أكثر تقارباً .

اكتشف المدرس السابق هذا طريقة لحفظنا هادئين في المساء ، وذلك بجمعنا حول مصباح زيت الخروع المتصدع والقراءة بصوت مرتفع قصصاً من «راما يانا» ومن «ماهابهاراتا» ، كان بعض الخدم ينضم إلى جمهور المستمعين أيضاً . كان المصباح يلقي بظلالنا الضخمة عالياً على عوارض السقف الخشبية ويكشف سحالي البيت الصغيرة وهي تصطاد الحشرات على الجدران ، والخفافيش تدور راقصة رقصة شيطانية خارج الشرفة بينما نحن نجلس في صمت نستمتع بتعجب فاغري الأفواه .

لا زلت أذكر المساء الذي وصلنا فيه إلى قصة كوشا ولابا التي يعد

فيها هؤلاء الشباب الأبطال أنفسهم لسحق سمعة والدهم وأعمامهم ؛
كان صمت تلك الحجرة المظلمة مطبقاً متوتراً ، والوقت متأخراً ، وفترة
صحنونا المقررة علي وشك الانتهاء ، والقصة لا تزال طويلة . في تلك
اللحظة الحرجة جاء رفيق والدي العجوز وأنقذنا ؛ حيث أنهى الفصل
بسرعة هائلة على وقع خطوات البايار وقصائد دارشورايا السريعة .
ألقي جانباً بأغنية كريتيغاس الناعمة البطيئة المكونة من أربعة عشر
مقطعاً عروضياً ، وأوقعنا تناغم الجناس وصوت القافية المتنافر في
ورطة بائسة .

في بعض الأحيان ، كانت هذه النصوص القديمة تثير النقاش
والتأويل اللذين ينهيهما أشوار بقرار مطولٍ ينم عن عمق التفكير ،
ورغم كونه أحد خدام الأطفال فقط ، أي أدنى مرتبة من كثيرين في
البيت ، إلا أنه مثل الجد العجوز بهيشما في «ماهابهاراتا» ، يؤكد أولوية
متزلته وجدارتها من مقعده المتواضع تحت من هم أعلى منه .

لحارسنا المميز الرفيع هذا نقطة ضعف واحدة أشعر بأن عليّ أن أشير
إليها من أجل الدقة التاريخية ، كان يتعاطى الأفيون ، الأمر الذي
يجعله يتوق بشدة إلي الطعام الدسم ، لذا عندما كان يجلب لنا
الحليب في الصباح ، على عكسنا لا تنفر نفسه منه بل يجذب إليه
بقوة ، إذا أشرنا بأقل بادرة لاشمئزازنا الطبيعي منه ، لا يحثه أي شعور
بالمسؤولية والحرص على صحتنا للضغط علينا مرة ثانية .

كانت تساوره شكوك كبيرة حول قدرتنا على تقبل الغذاء الحقيقي .

كان يجلس على مائدة عشائنا التي عليها كمية كبيرة من اللوشيس في طبق خشبي مدور سميك ، ويعد أن يتعد إلى أعلى بما فيه الكفاية حتى يقي نفسه من التلوث ، يقوم بسكب قليل من الطعام في كل صحن بنشاط وكأنه هبة منتزعة من الآلهة جزاء كفارة قدمها لإنسان تعبيراً عن توبته ، لم تكن هناك أدنى إشارة إلى واسطة أو تفضيل أو إفراط في الكرم . بعد ذلك يأتي التساؤل في ما إذا كنا نريد أكثر . كنت أعرف الإجابة التي ترضيه كثيراً ولا أقدر على حرمانه منها ، لذا لا أطلب صحناً آخر .

علاوة على ذلك كان أشوار مؤثماً على مخصص مصروفنا اليومي ، ليقدم لنا وجبة خفيفة بعد الظهر . يسألنا كل صباح ماذا نحب أن نأكل . كنا نعلم أن ذكر أرخص المواد يعتبر أفضل إجابة ، لذا كنا نطلب أحياناً وجبة خفيفة أو فطيرة أرز ، وأحياناً أخرى جراماً مسلوقاً غير قابلٍ للهضم أو شواء جوز هند مطحون . من الجلي أن أشوار لم يكن حريصاً جداً على طعامنا كحرصه على قوتنا الروحي .

المدرسة النظامية

اكتشفت عندما كنت في المدرسة الشرقية طريقة للخلاص من مذلة
كوني تلميذاً ، لقد شرعت في تدريس فصل خاص بي في أحد أركان
شرفتنا . كانت الأعمدة الخشبية تلاميذي وأنا أقوم بدور المدرس .
أجلس على كرسي أمامهم وفي يدي عصا . كنت قد قررت من هم
التلاميذ المجتهدون ومن هم الكسالى ، وكنت أميز حتى بين الهادئين
والأشقياء ، والأذكياء من الأغبياء بوضوح . لقد عانت أعمدة الشرفة
كثيراً من ضربتي المستمر لها لدرجة إنها كانت تتمنى التخلي عن
أرواحها لو كان فيها حياة .

كنت كلما تعاظم خوفها من جراء ضرباتي كلما ازدادت غضباً ،
حتى لم أعد أعرف كيف أعاقبها بما فيه الكفاية . لم يبق أحد من أفراد
ذلك الفصل الأغبياء المساكين ليكون شاهداً على عظمة تسلطي
عليهم ، فلقد حل مكان تلاميذي الخشب أعمدة حديدية مسبوكة ولم
يتبنَّ الجيل الجديد الأسلوب القديم في الدراسة ولو أنهم حاولوا ، لما
قدر لهم تحصيل نفس النتائج . منذ ذلك الحين أدركت أن الحصول
على الأسلوب أيسر بكثير من جوهر التدريس ، دون جهد استوعبت

كل نفاذ الصبر والانفعال السريع والحياة والظلم الذي أبداه من
درسوني .

كل عزائي أنني لم أملك القوة للتنفيس عن هذه البربرية ، وصبّ
جام غضبي على أي مخلوق رقيق الحس . مع ذلك لم يكن الفرق بين
تلاميذي الخشب وتلاميذ المدرسة الشرقية ليعيق نفسياتي ويقف حاجزاً
أمام جعلها عائلية لمدرسيها .

لا بد أنني لم أقض وقتاً طويلاً في المدرسة الشرقية لأنني كنت لا أزال
في سن غضة عندما التحقت بالمدرسة النظامية . السمة الوحيدة التي
أذكرها عنها هي توجب جلوس الطلاب في صفوف في رواق المدرسة
قبل بدء الدروس لغناء وترتيل بعض الأشعار . من الجلي إنها محاولة
لإضفاء مسحة من المرح والبهجة على الروتين اليومي .

من سوء الحظ ، كانت الكلمات بالإنجليزية ، واللحن نوعاً ما أجنبياً ،
لذا لم تكن لدينا أدنى فكرة أي نمط من التعويذة نمارس ، ولم نفهم
الرتابة عديمة المعنى التي قصد بها جلب السرور إلى قلوبنا . لكن ذلك
فشل في تعكير صفاء رضا سلطات المدرسة عن نفسها لتوفير مثل هذه
المتعة لنا . كانوا يعتبرون السؤال عن التأثير العملي لهبتهم السخية
تجاوزاً غير ضروري ، ربما دعوا سعادة المرء جريمة . كانوا قانعين بأخذ
الأغنية كما وجدوها ، بكلماتها وكل شيء ، من نفس الكتاب
الإنجليزي الذي أمدهم بالنظرية .

لا ريب أن اللغة التي حللت بها هذه الإنجليزية نفسها في أفواهنا

تثقيفية على الأقل بالنسبة لعلماء فقه اللغة . أستطيع أن أذكر سطرأ
 واحداً فقط Kallokee Pullokee Singill Mellaling Mellaling Mellaling
 بعد تفكير طويل أصبح بميسوري حزر أصل مقطع منها Kallokee لا
 تزال تخبرني ، غير أنني أظن أنه : Full of glee, singing Merrily, merrily,

merrily «طرب ، أغني بمرح ، بمرح ، بمرح . .»

وحيث أن ذكرياتي عن المدرسة النظامية تنبع من ضباب وتصبح
 أوضح ، إلا إنها ليست جميلة بأي حال من الأحوال . لو كان بإمكانني
 أن أصادق بعض الأولاد الآخرين ، لما كان التعليم مهمة لا نطاق . لكن
 ثبت في النهاية أن ذلك مستحيل . كانت معظم سلوكياتهم وعاداتهم
 بذيئة جداً ، لذا كنت أذهب في فترات الراحة بين الدروس إلى الطابق
 الثاني وأقتل الوقت جالساً قرب نافذة تطل على الشارع . كنت أحصي
 السنين : سنة ، سنتان ، ثلاث سنين ، أتساءل كم بقي عليّ من
 مثيلاتها .

أذكر فقط أحد المدرسين الذي كانت لغته بذيئة لدرجة جعلتني
 أرفض بإصرار الإجابة على أي من أسئلته ، من منطلق احتقاري له .
 لذا جلست صامتاً طوال السنة في أدنى مرتبة في صفه . وفي الوقت
 الذي ينشغل بقية التلاميذ ، كنت أترك وحيداً لحل كثير من الأسئلة
 المعقدة .

أذكر واحدة من هذه المسائل التي فكرت بها متأملاً بعمق وهي كيف

أهزم عدواً دون سلاح . أذكر انهماكي للآن في هذه المعضلة وسط مهمة الأولاد وهم يتلون دروسهم . حسبت لو أنني أستطيع تدريب بعض الكلاب والنمور والحيوانات الكاسرة الأخرى بشكل جيد ، وأصنع منها بعض الخطوط القتالية في ساحة المعركة لصنعت منظرأ رائعاً للبدء في القتال . بعد ذلك يؤول الأمر إلى بسالة جنودي لتحقيق النجاح . تصورت هذه الاستراتيجية البسيطة الرائعة بوضوح ، وأصبح نصر جانبي مؤكداً لا شك فيه .

حيث أن العمل لم يأت إلى حياتي بعد ، وجدت من السهل القفز إلى إنجاز الأمور عبر طرق قصيرة . منذ أن بدأت العمل ، وجدت أن ماهو عسير هو عسير حقاً ، وما هو صعب يبقى صعباً . طبعاً لا يبعث هذا على الراحة ، غير أنه لا يقرب في سوته الإزعاج الذي تسببه محاولة القفز عبر الطرق القصيرة .

أخيراً عندما انتهت سنة في هذا الفصل ، امتحنا في البنغالية من قبل باديت مادهو شوان فاشا سباتي . حصلت على أعلى مرتبة . اشتكى المدرس إلى ادارة المدرسة قائلاً إن في الأمر واسطة . لذا امتحنت مرة أخرى ومدير المدرسة جالس بجانب الممتحن . هذه المرة أيضاً حصلت على المرتبة الأولى .

نظم الشعر

لم أكن قد تجاوزت الثامنة حين ذاك . كان جيوتي ابن بنت عمتي يكبرني سنًا وله مدخل على الأدب الإنجليزي . يلقي مناجاة هملت لنفسه بحوية بالغة . لا أدري ما الذي أدخل في رأسه فكرة أن مجرد طفل مثلي يمكنه أن ينظم شعراً . أرسل في طلبه بعد ظهر يوم ما وسألني أن أحاول نظم قصيدة ، بعد أن شرح لي بناء وزن قصيدة البايار ، ذات الأربعة عشر مقطعاً . كانت القصائد حتى ذلك الوقت شيئاً أراه في الكتب فقط ، دون أي أخطاء مشطوبة أو إشارة شك ظاهرة أو جهد أو ضعف إنساني . لم أجروا على تصور أي محاولة من جانبي لتقديم قصيدة من ذلك القبيل .

في أحد الأيام ألقى القبض على لص في بيتنا . دفعني فضولي لإلقاء نظرة عليه وأنا أرتجف رعدة . كان مجرد رجل عادي ! خالطني شعور بالشفقة حين عامله حارس بوابتنا بقسوة . تجربتي في الشعر كانت مماثلة لذلك . وجدت بعد أن ربطت بعض الكلمات معاً وفق إرادتي إنها تحولت إلى قصيدة بايار ، وأحسست أنه لم تبق عندي أوهام مضللة حول أمجاد نظم الشعر . الآن حين أرى إساءة استعمال الشعر

المسكين ، يتأبني شعور بالشفقة والرثاء ، كثيراً ما جعلني أكيح الأيدي
غير الصبورة المتلهفة للانقضااض عليه . نادراً ما عانى اللصوص أكثر
مما يعاني الشعر من قبل الكثيرين .

حالما تغلبت على مشاعر الرهبة الأولى ، لم يبقَ هناك ما يمكنه أن
يوقفني . حصلت على دفتر بورق أزرق بفضل مساعدة أحد الموظفين
في منزلنا ، سطرت به خطوطاً بيدي دون انتظام وشرعت في كتابة
القصائد بعجلة كبيرة .

مثل غزال صغير ينطح بقرونه النامية حديثاً هنا وهناك ، كنت وبراغم
شعري الناشئء نسبب الأذى والإزعاج إلى أنفسنا وأكثر إلى أخي
الأكبر الذي أجبره فخره بأدائي لاصطياد المستمعين من كل أرجاء
البيت .

أذكر يوماً كنا خارجين فيه من مكاتب إدارة ممتلكاتنا في الطابق
الأرضي بعد حملة غزو ضد الموظفين ، وصادفنا محرر الصحيفة
الوطنية National Paper نابا جويال ميترا ، الذي كان قد دخل البيت من
لحظة . خاطبه أخي بصراحة دون أي لفظ «نابا جويال باهو! كتب
رابي قصيدة ، عليك أن تسمعها» على الفور تبعت القراءة .

لم تكن أعمالي بعد خزيمة . كان بإمكان الشاعر أن يحمل كل
إسرافه في التعبير عن عواطفه في جيوبه . كنت كاتباً وطابعاً وناشراً في
آن واحد . وكان أخي ، مسؤول الدعاية ، زميلي الوحيد . ألقيت على
نابا جويال بابو بعض القصائد التي نظمته على اللوتس قرب أسفل

الدرج بصوت يتأجج في علوه وانخفاضه مثل حماسي ، «عمل جيد»
قال مبتسماً «لكن ما معنى Dwirepha؟ كان للكلمة نفس عدد مقاطع
كلمة Moumachhi التي تعني نحلة في اللغة الدارجة . كيف حصلت
على هذه الكلمة ، لم أعد أذكر إلا أنها الكلمة الوحيدة في كل
القصيدة التي علقت عليها آمالي . لم يكن هناك شك في أنها تركت
انطباعاً جيداً لدى الموظفين . لكن مما يثير الاهتمام أن نابا جويال بابو
لم يستسلم لها ، على العكس تماماً ، ابتسم . كنت على يقين أنه لا
يمكن أن يكون رجلاً متفهماً . لم أقرأ عليه شعري بعد ذلك إطلاقاً .
أضفت كثيراً من السنوات إلى عمري منذ ذلك الحين ، لكنني لم أفلح
في تحسين اختياري لمن هو خبير في إطلاق الأحكام النقدية ومن هو
ليس كذلك . رغم ذلك ، مهما ابتسم ناباويال بابو فإن كلمة
Dwirepha بقيت مثل نحلة أثملها العسل ، مغروزة في موضعها

الدروس المتنوعة

كان أحد مدرسي المدرسة النظامية يعطينا دروساً خاصة في البيت أيضاً من الساعة السادسة إلى التاسعة والنصف صباحاً . كان جسمه نحيلاً وجافاً وصوته حاداً ويبدو مثل تجسيد لعصا . كانت دروسنا معه تتراوح من كتب قراءة الأدب الشائع والعلوم في البنغالية إلى ملحمة ميجھنا باره .

كان أخي الثالث حريصاً على توفير معرفة متنوعة لنا ، لذا كان علينا أن ندرس في البيت أكثر بكثير مما هو مقرر لنا في مناهج المدرسة . كنا نستيقظ قبل انبلاج الفجر ، ونشرع في مباراة قتالية أو اثنتين مع مصارع خفي ونحن ملتفان بالمتنر . ثم دون توقف نضع قمصاننا فوق أجسامنا المغبرة ونبدأ في دراسة الأدب والرياضيات والجغرافيا والتاريخ . عند عودتنا من المدرسة لمجد مدرسي الرسم والرياضة البدنية جاهزين في انتظارنا . في المساء يأتي أجهور بابو لإعطائنا دروساً في الإنجليزية ولا يطلق سراحنا قبل الساعة التاسعة .

في أيام الاحاد كنا نأخذ دروساً في الغناء مع فميشنو ، ثم يأتي سيتانات دوتا كل أحد تقريباً ليشرح لنا دروس العلوم الطبيعية مدعومة

بالأمثلة والتجارب . كانت هذه الدروس الأخيرة تثير اهتمامي جداً .
أذكر جيداً شعور الدهشة الذي انتابني عندما وضع قارورة زجاجية
على النار فيها قليل من الماء ونشارة الخشب ، وبين لنا كيف يصعد الماء
الحار المخفف إلى أعلى ويهبط الماء البارد إلى أسفل وكيف يبدأ الماء
أخيراً في الغليان . شعرت أيضاً بالبهجة العظيمة في اليوم الذي
تعلمت فيه أن الماء قابل للفصل عن الحليب وأنه يشخن عندما يغلي لأن
الماء يحرر نفسه من المزيج المرتبط عبر البخار . لم نشعر أن يوم الأحد
يوم أحد إلا إذا جاء فيه ستيناتات .

كان هناك وقت يدرسنا فيه طالب من مدرسة كامبل الطيبة عن عظام
الإنسان ، وعن سبب وجود هيكل عظمي مربوطة فيه العظام معاً
بأسلاك ، معلقاً في غرفة فصلنا . وأخيراً وُجدَ وقت أيضاً لبانديت
هيرامبا تاتواراتنا ليأتي ويعلمنا قوانين قواعد اللغة السينسكريتية عن
ظهر قلب دون فهم . لست متأكداً هل أسماء العظام أم حكمة النحوي
كانت أصعب على التلفظ . لعل الثانية هي التي حصلت على سعة
النصر .

شرعنا في تعلم الإنجليزية بعد أن حققنا تقدماً معتبراً في دراستنا اللغة
البنغالية . كان أجهور بابو ، مدرسنا للغة الإنجليزية يدرسنا في المساء
لأنه ملتحق بالكلية الطيبة .

يقال لنا إن اكتشاف النار واحد من أعظم اكتشافات الإنسان . لاشك
عندي في ذلك ، غير أنني لا أستطيع التغلب على مشاعري بأن الطيور

الصغيرة محفوظة لأن آباءها لا يقدرّون على إشعال المصابيح في المساء ، ولأنّها لا تأخذ دروسها اللغوية باكراً في الصباح . لا بد أن سرورها باد للجميع ، طبعاً علينا أن لا ننسى إنها لا تتعلم اللغة الإنجليزية .

حافظ مدرّسنا ، طالب الطب ، على صحة جيدة لدرجة لم يكفّ تآزر أمنيات تلاميذه الثلاثة الحماسية لتجعله يغيب ولو ليوم واحد . مرة واحدة لزم الفراش عندما حدث قتال بين الطلاب الهنود والطلاب الأوراسيين* في الكلية الطبية وألقي بكرسي على رأسه . كان هذا الحادث المؤسف ولاريب كارثة لمدرّسنا ، لكن وقعه كان مختلفاً بالنسبة لنا . في الواقع خالجتنا فكرة أن شفائه السريع لم يكن ضرورياً .

في المساء ، يصب المطر بشدة مثل الرماح . عمر بيتنا الضيق تغمره المياه حتى أسفل الركبة . حوض الاستحمام يفيض بالماء في الحديقة وذوائب شجر السبيل الأشعث تقف كحارس فوق المياه ، وكلنا نشع طرباً كأريج السداة في زهرة الكادامبا ، فلقد حل وقت قدوم مدرّسنا منذ بضعة دقائق ولم يأت ، لكن ما من شيء مؤكد بعد ، في انتظارنا نرقب ونحن جالسين الشرفة المطلة على المربنطرة حزينة . على حين غرة بدا كما لو أن قلوبنا هوت على الأرض بسقطة عظيمة مكتومة الصوت ، لقد دارت المظلة السوداء المعهودة حول ركن الحديقة ، غير

* الأوراسي : من كان أحد والديه أوروبياً والآخر هندياً (المترجم) .

مهزومة حتى ولا يمثل هذا الجواهل يمكن أن تكون مظلة شخص آخر؟ كلا، لا يمكن ذلك. قد يوجد في العالم الشاسع شخص آخر يماثله في العناد، لكن ليس في هذا الممر الضيق بالذات.

حين أنظر إلى الخلف، إلى كل الفترة التي قضاها معنا، لا أملك أن أقول أن أجهور بابو كان رجلاً قاسياً. لم يحكمنا بعصا، ولم يصل حتى توبيخه إلى التعنيف، لكن مهما كانت مميزات الشخصية، دروسه في المساء وموضوعه اللغة الانجليزية، فاني على يقين أن حتى الملاك قد يبدو لأي طفل بنغالي مثل رسول ياما، إله الموت، إذا جاءه في آخر يوم يائس بعد المدرسة، وأشعل مصباحاً خائباً يغم الصدر ليدرسه اللغة الإنجليزية.

بأي وضوح أستعيد ذكرى ذلك اليوم الذي حاول فيه مدرستا أن يطبع في أذهاننا مفاتن اللغة الإنجليزية. ألقى على مسامعنا بعض الأسطر من كتاب الإنجليزي بطلاوة زائفة عظيمة، نثرأ أم شعراً، لم أعد أذكر، كان لها تأثير غير متوقع إطلافاً. لقد انفجرنا بالضحك للدرجة أنه صرفنا رأساً في ذلك المساء. أدرك ولارب أنه يدافع عن قضية صعبة وإذا أراد لنا أن نقف في صفه فإن ذلك يستلزم نصلاً طويلاً قد يمتد لبضعة سنوات.

كان أجهور بابو يحاول أحياناً أن ينفخ بعض النسيم العليل من المعرفة الخارجية على مناهج فصلتنا الروتينية المجدبة. أخرج يوماً رزمة من الورق من جيبه وقال «اليوم سأريكم عملاً رائعاً من صنع الخالق»، ثم

جمع الغطاء ليقدم مقطعاً من القصة الهوائية للإنسان واسترسل في شرح وتفسير بدائع آلية عملها .

لا زلت أذكر صدمتي . كنت أظن دائماً أن الإنسان ينطق بكامل جسده ولم أتخيل أبداً أن فعل الكلام قد يكون منفصلاً على هذا النحو . مهما كانت آلية هذا الجزء رائعة فإنها بالتأكيد أقل قيمة من الإنسان كله . لم أنصح عن ذلك في سريرتي بكلام كثير ، غير أنه كان سبباً لفزعني . لم يكن بوسعي التجاوب مع حماس حديث المدرس في ذلك اليوم ، ربما لأنه فقد رؤية تلك الحقيقة .

في يوم آخر ، أدخلنا معه إلى غرفة التشريح في الكلية الطبية . كانت جثة امرأة عجوز ممددة على المشرحة . لم يزعجني ذلك كثيراً ، لكن ما أقلقني هو رؤية ساق مقطوعة ملقى بها على الأرض . بدت لي رؤية الإنسان مقطّعاً إلى شظايا أمراً مروّعاً ، لا معقولاً ، لازمني الانطباع الذي خلفته تلك الساق السوداء عديمة المعنى لأيام عديدة جداً .

بعد الانتهاء من كتابي قراءة ساركار الإنجليزية الأول والثاني ، باشرنا بدراسة كتاب ماككولوش «درس في القراءة» ، كانت أجسامنا منهكة في آخر النهار وعقولنا تتشوف إلى المقصورات الداخلية . كان الكتاب أسود وسميكاً بكلمات صعبة ولم يكن موضوعه أكثر جاذبية ، حيث أنه افتقر إلى حنان أم إلهة التعليم ساراسواتي . لم تكن كتب الأطفال آنئذ تعج بالصور مثل اليوم . علاوة على ذلك ، تصطف في بداية كل درس كلمات بمقاطع منفصلة وعلامات نطق بغضبة

منفرة كحفر بحراب مشرعة تسد الدرب أمام عقل الطفل . هاجمته
مراراً صفوفها المستنة بلا طائل .

حاول مدرسنا أن يشعرنا بالعار بتعداده مآثر طلابه الآخرين . شعرنا
بالندم في حينه دون أن نأخذ موقفاً عدائياً أو ودياً من هؤلاء الطلاب ،
غير أن هذا الشعور لم يفلح في خلاصنا من الظلمة المتعلقة بذلك
الجلد الأسود .

غرست العناية الإلهية ، من دافع رافتها بالجنس البشري سحراً منوماً
في كل الأشياء المضجرة . ما أن تكاد دروسنا الإنجليزية تبدأ حتى تأخذ
رؤوسنا النعسة في الترنج . كان ذر الماء في عيوننا والركض حول
الشرقة ملطفات مسكنة ذات تأثيرات قصيرة الأمد ، إذا حدث وأن مر
أخي الأكبر ولاحظ نعاسنا وعذابنا ، يطلق سراحنا لما تبقى من المساء ،
ولا يستغرق شفاؤنا من نحولنا سوى لحظة واحدة .

نزهتي الأولى

يوم تفشت حمى الضنك مرة في كلكتا ، كنا من بين جزء من عائلتنا الكبيرة التي اضطرت إلى اللجوء إلى دارة شهاتو بابو النهرية . كانت هذه نزهتي الأولى . رحبت بي ضفة نهر الجانجس وضممتني في حضنها كصديق قديم . هناك أمام قسم الخدم ، كانت أيكه من شجر الجواقة أقضي أيامي في فيثها ، ومن بين فرجات جذوعها أحرق في التيار المتدفق وأنا قابع علي الشرفة . كنت أشعر حين أستيقظ كل صباح بأن النهار آت إليّ مثل رسالة مذهبة الأطراف تفصح عن أخبار رائعة حالما أفض غلافها . أرش وجهي بالماء وأسرع إلى مقعدي في الخارج كي لا أفقد أي جزء منه . كل يوم كان هناك مد وجزر نهر الجانجس ، وحركات متنوعة لعدد كبير من القوارب المختلفة وتغير ظلال الأشجار من الغرب إلى الشرق ، وفوق ظل حد الغابة على الضفة الأخرى يتدفق دم الحياة الذهبي من صدر سمائه المغيب المطعون . كانت بعض الأيام غائمة من الصباح الباكر ، وترحل فيها ظلال الغابة السوداء الداكنة فوق النهر . ثم فجأة تأتي الأمطار الصاخبة ملطخة الأفق فيستأذن حد الضفة الأخرى المعتم بالانصراف باكياً ،

وقد يتفتخ النهر بجيشان مكتوم وتمرح الريح الرطبة بين أوراق الشجر .
 أحسست أن الجدران والعوارض التي تدعم الحجرة والروافد في
 السقوف المائلة تمنحني ولادة جديدة في العالم ، وحين تعرفت على
 الأشياء من مقربة ، اختفت قشرتها القذرة التي كونتها العادة والعرف .
 أنا على يقين أن طعم دبس السكر الذي كنت أتناوله مع اللوشيس
 البارد في الإفطار لا يختلف عن طعام الآلهة الذي كان يعبه أندرا ، رب
 الآلهة ، في سمائه ، لأن الخلود موجود في الذائق لا في الرحيق ، ولن
 يجده من يبحث عنه في مكان آخر .

كان خلف البيت منطقة مقفلة محاطة بجدران فيها حوض استحمام
 ودرجات تقود إلى الماء بمحاذاة شجرة جامبالان ضخمة تحيط بها
 مجموعة أشجار ثمار مختلفة كثيفة ، وفي ظلها يستكين الحوض
 بسرية . كان الجمال المحجب لهذه الحديقة الداخلية الصغيرة الخجولة
 سحراً رائعاً مختلفاً عن امتداد ضفة النهر الواسع في الأمام . كانت مثل
 عروس البيت في عزلة قيلولتها عند الظهيرة ، ترقد مرتاحة على لحاف
 متعدد الألوان طرزته بنفسها لتهمس بأسرار قلبها . قضيت كثيراً من
 ساعات الظهيرة تحت شجرة الجامبالان هذه وحيداً ، أحلم بمملكة
 ياكشاس الخفيفة في أعماق الحوض . استحوذ عليّ فضول عظيم
 لرؤية قرية بنغالية بسبب جاذبية مساكنها وأضرحة قديسيها وممراتها
 الضيقة ودرجات أحواض استحمامها ، وألعابها وتجمعاتها ، وحقولها
 وأسواقها ، وعالمها برمته كما رأيته في مخيلتي . كانت مثل هذه القرية

في الجانب الآخر من حديقتنا ، إلا إنها محظورة علينا . لقد وطننا خارجاً لكن ليس للحرية . كنا في السابق سجناء ، والآن نجثم على سارية الطيور ، غير أن القيد لم يزل قائماً .

خرج في إحدى الصباحات اثنان ممن يكبرونا في جولة في القرية . لم أقدر على كبح رغبتني أكثر من ذلك ، تسلفت خلصة دون أن يراني أحد وتبعتهما لمسافة قصيرة . أثناء عبوري الممر المظلل ذي الحواجز المقفلة من شجيرات الشيوار الشوكية والمهادي لحوض مغطى بطحالب الماء الخضراء ، رأيت وتشبعت بصورة جميلة إثر أخرى . لا زلت أذكر صورة رجل عار منهمك في حمام متأخر على حافة الحوض ينظف أسنانه بنهاية غصين ممضوغ . على حين غرة انتبه الرجلان إلى أنني خلفهما «عد إلى البيت . عد حالاً» ويخاني بقولهما وقد صدمتا . كنت حافي القدمين ولا أرتدي شالاً أو لباساً فوق قميصي . لم أكن جاهزاً للخروج وكان ذلك خطأي . لم يثقل عليّ أبداً بلباس الجراب أو الكساء الزائد عن الحاجة ، لذا لم أرجع خائب الظن في ذلك الصباح فقط ، وإنما فقدت أي فرصة لإصلاح الإهمال وللسماح لي بالمغادرة خارجاً في أي يوم آخر .

سدت عليّ المنافذ الخلفية ، لكن في الأمام حررتني نهر الجانجس من كل القيود . كان بإمكان فكري أن يثب إلى سطح أي قارب أراه بمخر عباب النهر وأرحل معه بعيداً إلى أراضٍ لم تذكر في أي جغرافيا معجناً .

كان ذلك قبل أربعين سنة . لم أطأ حديقة هذه الدارة المظلمة منذ ذلك
الحين . لا بد أن نفس البيت القديم ونفس الأشجار القديمة لا تزال
قائمة ، لكنني أعلم أن الحديقة لا يمكن أن تكون على حالها ، لأنني أين
أصبحت الآن لأستعيد نضارة الدهشة التي جعلتها ما كانت عليه ؟ !
عدنا إلى بيت جوراسانكو الخاص بنا في المدينة ، لتصبح أيامي مثل
لقم كثيرة تقدم ليقضمها ويتلعبها بلعوم المدرسة النظامية .

ممارسة الشعر

سرعان ما امتلأ الدفتر الأزرق ، مثل قفير حشرات ، بشبكة متنوعة من الخطوط المائلة وضربات الحروف السمكية والدقيقة ، وسرعان ما جعد أوراقه إلحاح الصبي الكاتب التواق ، ثم بلت أطرافه والتفت مثل أنياب ، كما لو إنها تقبض بقوة على ماهو مكتوب بداخله ، حتى عصف بأوراقه أخيراً النسيان الرحيم الذي أنقلده من مرور وخز المطبعة والرعب من ولادة في وادي الكرب هذا .

ليس بوسعي الادعاء بأنني شاهد حي على انتشار شهرتي كشاعر . رغم أن ساتكاري داتا لم يكن مدرساً لفصلنا ، إلا أنه كان مولعاً بي . كان قد ألف كتاباً في التاريخ الطبيعي ، الأمر الذي أتمني أن لا يثير أي تعليق قاس بخصوص اهتمامه بي . في يوم من الأيام أرسل في طلبي وسألني «إذا أنت تكتب الشعر؟» لم أحاول إخفاء الأمر . منذ ذلك الوقت أصبح يسألني بين حين وآخر أن أكمل رباعية بإضافة البيتين الأخيرين ، يكون هو قد كتب مطلعها .

كان جويندا بابو ناظر المدرسة قصيراً سميناً داكن البشرة جداً يجلس بحلته السوداء مع دفاتر حساباته في مكتب في الطابق الثاني . كنا

جميعاً نرهبه لأنه قاضٍ مسلحٌ بعضاً . هربت مرة إلى حجرتي من خمسة أو ستة أولاد أكبر مني مستأسدين على من هم أضعف منهم . لم يكن عندي أي شاهد سوى دموعي . فريحت القضية .

من تلك اللحظة كنّ لي جويندا بابو المحبة في قلبه الرقيق . استدعاني يوماً إلى حجرتي خلال فسحة الاستراحة . ذهبت وأنا أرتعش خوفاً ، لكن ما كدت أمثل بين يديه حتى بادرنى بنفس السؤال الذي طرحه ساتكاري بابو إذا أنت تكتب الشعر؟ ألم أتردد في الاعتراف ، فأوكل لي كتابة قصيدة حول بعض التعاليم الأخلاقية السامية التي لا أذكرها . يمكن لمن كانوا طلاباً عند جويندا بابو فقط أن يقدروا حجم التنازل الذي تضمنه ذلك الطلب . عندما سلمته القصيدة في اليوم التالي ، أخذني إلى أعلى فصل وأوقفني أمام الطلاب وقال أمراً «اقرأ!» فألقيت قصيدتي بصوت مرتفع .

الشيء الوحيد الذي يستحق الإطراء في تلك القصيدة أنها فقدت بعد حين . لم يكن وقع القصيدة الأخلاقي على الفصل ملهماً ولا العواطف التي أثارها محببة . كان معظمهم على يقين أن القصيدة ليست من نظمي . قال أحدهم أن بإمكانه تقديم الكتاب الذي نسخت منه ، لكن لم يضغظ عليه لفعل ذلك ، الإلزام على إثبات شيء أمر بغض على من يريدون أن يصدقوا أخيراً ، راح عدد الراكضين خلف الشهرة الشعرية يزداد بشكل ينذر بالخطر ولم تكن الطرق التي اختاروها من السبل المعترف بها التي تؤدي إلى التقدم

الأخلاقي .

اليوم لا غرابة في كتابة الشباب الشعر ، فقد ولى سحره . أذكر كيف
كان ينظر إلى النساء القليلات اللاتي يكتبن الشعر على أنهن مخلوقات
الله الخارقات . اليوم يراودنا الشك إذا قيل لنا إن بعض السيدات
الشابات لا يكتبن الشعر .

يتبرعم الشعر قبل الوصول إلى الفصل البنغالي العالي بأمدة طويل .
لو كان هناك جويندا بابو معاصراً قد لا يلاحظ إطلاقاً المآثر الشعرية
التي ألفتها .

سريكانثا بابو

توفر لي في ذلك الوقت مستمع لن وجود الزمن بمثله أبداً . كان يتحلى بمقدرة على الإعجاب بما أكتبه مغالى بها تحرمه تماماً من منصب ناقد في أي من المجالات الشهيرة . كان الرجل العجوز مثل حبة مانجو الفونسو الناضجة التي لا أثر لحموضة أو ألياف خشنة في تركيبها . كان وجهه الخليق الرقيق كامل الاستدارة بفضل صلعه الكامل ، ولم تبقَ لأسنان قد تزعج فمه أي باقية ، و تومض عيونه الكبيرة الباسمة بفرح دائم . كان عندما يتكلم بصوته العميق الناعم ، تتكلم عيونه وفمه ويده أيضاً . كان يتسبب إلى مدرسة الثقافة الفارسية القديمة ، ولا يفقه أي كلمة من الإنجليزية . رفيقاه الدائمان هما التارجيلة في يساره وآلة الستار في حجره ، وحنجرتة تشدو بأغنية مستمرة .

لم يكن سريكانثا بابو بحاجة إلى تقديم رسمي ، لأن أحداً لا يقدر على مقاومة الدعوات الطبيعية لقلبه الكريم . أخذنا معه مرة ليصورنا في أستوديو إنجليزي كبير للتصوير . هناك أسر المالك بقصته الساذجة . أخبره بخليط من الهندوسية والبنغالية أنه رجل فقير وبحاجة ماسة إلى هذه الصورة . فما كان من الرجل إلا أن أعطاه سعراً مخفضاً وهو

يبتسم . لم تكن تلك المساومة الخالية من الرسميات في ذلك المحل الإنجليزي غير لافتة بتاتاً . كان سريكانثا بابو في غاية السذاجة وغير مدرك لإمكانية صنعه أية إساءة . كان يأخذني أحياناً إلى بيت تبشيري أوروبي . هناك أيضاً كان يفعم الاجتماع بالحياة والحيوية بلعبه وغنااته وملاطفته ابنة المبشر الصغير وإعجابه غير الخجول بأقدام زوجة المبشر المتعلة . قد يوصم سلوك شخص آخر مناف للعقل بالملل ، لكن بساطته الشفافة كانت تسر الجميع وتدعوهم إلى مشاركته مرحة .

لم يتأثر سريكانثا بابو بالفظاظة أو الإهانة . حدث مرة وأن جاء مؤسستنا مغن له قسط من الشهرة . كان يكيل الألفاظ الجارحة لغناء سريكانثا بابو المسكين عندما يكون في حاجة ماسة للخمر ، ويتحملة سريكانثا بابو دون أن يجفل ولا يحاول إجابته . أخيراً عندما سببت فظاظة الرجل التي لا يمكن تقويمها طرده ، تشفع له سريكانثا بابو متوسطاً بحماس وأصر قائلاً «إنه ليس السبب ، إنها الخمرة» .

لم يكن ليتحمل رؤية أي إنسان غارقاً في الحزن أو حتى أن يسمع به . لذا عندما كان يريد أي من الأولاد تعذيبه ، كل ما عليه عمله هو قراءة مقاطع من كتاب فيدياسجار «نفي ستيا» ، عندها يصيب القلق العظيم سريكانثا بابو ويرفع يديه محتجاً ويتوسل له أن يتوقف .

كان هذا الرجل المعجوز صديقاً لأبي وإخوتي الكبار ولنا نحن الصغار على حد سواء . لقد كيّف عمره ليلائم كلاً منا ، مثل صلاحية أي نواة تمر للرقص والوثب في سيل جارف ، لذا يكفي أي حافز مهما

صغر أن يعيد إليه مزحه .

أذكر أني مرة نظمت ترنيمة صغيرة تقع ضمن حدود الإشارات الضمنية المعهودة لحن وبلاء هذا العالم . اقتنع سريكانثا بابو بأن والذي المبجل سيغمز بالبهجة لسماعه مثل هذه الدرة . تطوع بحماسة المطلق المألوف ليقدمها له . من حسن الحظ أني لم أكن موجوداً حين ذاك ، لكنني سمعت لاحقاً بأن والذي سُرَّ جداً لأن مآسي العالم قد أثارت ابنه الصغير باكراً لدرجة جعلته ينظم الشعر . أنا متأكد أن الناظر جويند ابابو كان سيظهر احتراماً أوفر لمحاولتي الكتابة حول موضوع جاد جداً . كنت في الغناء تلميذ سريكانثا بابو المفضل ، علمني أغنية تقول « لا براجا أكثر لي » ، وكان يجزني إلى كل غرفة ويطلب مني غناءها . كنت أغني وهو يصاحبني بمداعبة أوتار سيتاره ، وحين نصل إلى الكورس كان ينضم إليّ ويكرر الجمل عدة مرات ، يوميء برأسه مبتسماً لكل فرد بالتناوب ، كما لو أنه يمسه بمرفقه استرعاءً لمزيد من التقدير الحماسي .

كان مخلصاً لأبي ، ووضع ترنيمة من إحدى ألحانه تقول « لأنه فؤاد قلوبنا » عندما غنى هذه الترنيمة في حضرة أبي نحس سريكانثا بابو لدرجة جعلته يشب من مقعده وينقر أوتار سيتاره بعنف وهو يغني « لأنه فؤاد قلوبنا » ثم لوح بيده في وجه أبي حين بدل الكلمات « لأنك أنت فؤاد قلوبنا » . عند زيارته الأخيرة ، كان أبي طريح الفراش في دارة نهريه في شونشورا . لم يقدر سريكانثا بابو علي النهوض دون مساعدة

إثر مرضه الأخير ، وكان يفتح جفونه بيده حتى يرى . في تلك الحالة تولت ابنته رعايته ليسافر إلى شونشورا من بيته في بيرهام بجهد كبير استطاع مسح الغبار عن أقدام أبي ، ثم عاد إلى مسكنه في شونشورا حيث لفظ أنفاسه الأخيرة بعد ذلك بأيام . سمعت بعد ذلك من ابنته أنه عاد إلى صباه الخالد وأغنية «ما أحلى رحمتك ياإلهي» على شفّتيه .

نهاية درسنا البنغالي

كنا في المدرسة في الصف قبل الأخير ، وفي البيت متقدمين كثيراً على المواضيع التي تدرس في الفصل ، حيث انتهينا من كتاب أكشي داتا حول الفيزياء الميسرة وملحمة الشعر المرسل «ميجهنادباده» . درسنا الفيزياء دون الرجوع إلى الأجسام الطبيعية ، لذا كانت معلوماتنا عن الموضوع مستمدة من الكتب لا التجارب العملية . في الواقع كان الوقت الذي قضيناه في دراستها مضبغة تامة لعقلي كما لو أنني قضيت الوقت لأفعل شيئاً وأكثر .

ولم تكن «ميجهنادباده» أيضاً تبعث على السرور . قد لا يكون أشهى الطعام حسن المذاق عندما يلقي على رأس الإنسان . يشبه توظيف ملحمة لتدريس اللغة استعمال سيف للحلاقة : قلة احترام للسيف وإيلاام للخد . يجب أن تدرس القصيدة من وجهة نظر عاطفية ؛ إغراء استعمالها كمعجم مربوط بقواعد اللغة عملية غير مدروسة جيداً لإرضاء ساراسوتي ، إلهة التعلم والمعرفة . دون سابق إنذار وضعت نهاية لدراستنا في المدرسة النظامية ، ولذلك حكاية أراد أحد مدرسينا أن يستعير من مكتبتنا نسخة من سيرة حياة جدي التي كتبها ميترا .

جمع ابن أخي وزميلي في الفصل شجاعة كافية لذكر ذلك لأبي . استخلص المدرس أن البنغالية المستعملة في الحياة اليومية لا تصلح كمنهج دراسي ، تلفظ باصطلاح ميت ملفق بدقة متناهية من توافه الأمور ، أشعر أبي بأن دراستنا للبنغالية قد تجاوزت حدودها ووصلت مرحلة خطيرة وقد تخفق في تحقيق غايتها المنشودة . في صباح اليوم التالي ، عندما وضعت منضدتنا كالعادة في الشرفة الجنوبية وعلقت الصورة على مسمار في الحائط ، وأصبح كل شيء معداً لبدء درسنا مع نيل كمال بابو ، أرسل في طلب ثلاثتنا للمثول أمام أبي في حجرته في الطابق العلوي «لستم بحاجة لدراسة البنغالية بعد الآن» قال ، فرقصت عقولنا فرحاً .

كان نيل كمال بابو ينتظر في الطابق السفلي وكتبنا لمقاة على المنضدة ولاريب أن فكرة دراستنا «ميجهنادبار» مرة أخرى كانت لا تزال تشغل ذهنه . يقال إن روتين الحياة اليومية يبدو غير حقيقي عندما يحتضر الإنسان في فراش الموت ، لذا في تلك اللحظة ، أصبح كل شيء من المدرس إلى المسمار المعلق عليه السبورة فارغ المحتوى كسراب . كانت معضلتنا الوحيدة كيف نرف الخبز إلى نيل كمال بابو باللباقة المتوجبة . أخيراً فعلنا ذلك بتحفظ معقول ، في حين كانت الأشكال الهندسية تحدد بنا بتعجب وتنظر إلينا «ميجهنادبار» بانشداه . كانت كلمات المدرس الوداعية « عند نداء الواجب ، ربما كنت أحياناً قاسياً معكم ، لاحتفظوا ذلك في الذاكرة . ستعرفون قيمة

ما علمتكم إياه في وقت لاحق» .

قدرت قيمة كلماته ، فلقد نشطت أدمغتنا لأننا تعلمنا بلغتنا الأم .
على التعليم أن يتبع عملية الأكل بقدر الإمكان . عندما يبدأ التذوق من
اللحمة الأولى تستيقظ المعدة لأداء وظيفتها قبل أن تمتليء كي تمارس
إفرازات الهضم واجبها كاملاً . لا يحدث شيء من هذا القبيل حين
يدرس الولد البنغالي بالإنجليزية . تبشر اللحمة الأولى بفتح صفي
الأسنان مثل زلزال في الفم ، وعندما يكتشف أن القشرة ليست من
نفس نوع النواة ، بل هي مجرد حلوى مهضمة يكون نصف حياته قد
ولى . في الوقت الذي يختنق فيه المرء وهو يغمغم بتهجئة الكلمات
وقواعد اللغة ، يبقى الداخل طاوياً ؛ وعندما يتذوق الطعام بعد أمد
طويل تختفي الشهية ، إذا لم يعمل العقل برمته منذ البدء بكامل قواه ،
يبقى غير متطور إلى النهاية ، حين ترمى إلى سماع كل من حولنا
صبيحة دراسة الإنجليزية ، ملك أخني الثالث شجاعة كافية للحفاظ
على دراستنا البنغالية . إليه في السماء شكري المبجل .

البروفسور

أرسلنا إلى الاكاديمية البنغالية حتى تركنا المدرسة النظامية وهي معهد آسيوي -أوروبي- . شعرنا أننا حصلنا على مدخل للوقار بوصولنا إلى الطابق الأول للحرية . في الواقع كان ذلك التقدم الوحيد الذي قمنا به في تلك الأكاديمية . ما تعلمناه هناك لم نفهمه أبداً ، ولم نحاول التعلم ، لم يبدُ أيما فارق في ذلك لأي كان . كان الأولاد هناك مزعجين لكن غير مقرفين ، أمر مريح جداً . كانوا يكتبون كلمة «حمار» على أكفهم ويضربونها على ظهورنا قائلين بجذل «مرحياً» ويدفعوننا بوكز الأضلع من الخلف ثم ينظرون في الاتجاه الآخر ببراءة . ويلقون بلب الموز على رؤوسنا برفق وينسلون محتفين . مع ذلك ، كان الأمر كالمخرج من الوحل إلى الصخور كنا نتعرض للمضايقة ، لكن سمعنا لم تشوه .

كان لهذه المدرسة ميزة عظيمة بالنسبة لي . لم يتعلق أحد بالأمل اليائس من أن ولداً مثلي يمكن أن يحقق تقدماً في التعليم . كان لنا في هذا المعهد ذي الدخول المحدود ميزة عظيمة في أعين مسؤوليه وهي أننا ندفع الأقساط بانتظام ، الأمر الذي منع حتى قواعد اللغة اللاتينية من

أن تكون حجر عثرة . لم يחדش أعظم الأخطاء الفظيعة ظهورنا بأي
أذى . لم يكن للرافة أي يد في ذلك لقد تكلم المسؤولون مع المدرسين
وأوصوا بنا .

لم يكن المكان مؤذياً ، لكنه كان مدرسة . كانت الغرف كثيفة بفضاظة
وجدرانها تنتصب حراساً كالشرطة ، لعلها أقرب شبهاً بصندوق عيون
أبراج الحمام من موضع سكن بشري ، لا زينة ولا صور ولا لمسة ألوان
ولامحاولة لجذب القلب الطفولي . تم تجاهل الحقيقة التي تقول إن ما
يجبه الطفل أو لا يجبه يشكل جزءاً كبيراً من تفكيره . بطبيعة الحال كنا
نشعر بالكآبة التامة حالما تخطأ أقدامنا عتبات المعهد ونندلف إلى الساحة
الرباعية الزوايا ، لذا أصبح اختلاقتنا للأعذار حتى نغيب عن المدرسة
أمراً دائماً الحدوث ، وكان لنا في هذا شريكاً . كان لإخوتي الكبار
مدرس للفارسية ندعوه مونشي ، متوسط العمر ، ناحل من عظام
وجلد فقط ، كما لو أن ورق البرسمان الداكن اللون قد مر على هيكله
العظمي دون أن يملأ بالدم واللحم . ربما كان يتقن الفارسية جيداً
ومعرفته باللغة الإنجليزية حسنة ، غير أن طموحه لم يكن منصباً في أي
من الاتجاهين . كان يعتقد أن مهارته في الغناء لا يضاهيها إلا حذقه في
مبارزة الهراوات . كان يقف في وسط فناء بيتنا ويقدم سلسلة من
الحركات الغريبة بعضاً ضد خصمه الذي لم يكن إلا ظله . لست
بحاجة لإضافة أن ظله لم يفز عليه أبداً ، وعندما يطلق في النهاية
صرخة مدوية ويسدد ضربة لخصمه على رأسه وهو يتسم منتصراً ،

يستلقي الظل تحت أقدامه بخضوع . يشبه غناؤه الحاد المنطلق من الأنف والخارج من تناغم اللحن مزيجاً رهيباً من الأثين والتأوه والعويل القادم من عالم الأشباح . كان معلمنا في الغناء فيشنو بمزاحه أحياناً بقوله ، انتظر يامونشي ، على هذا النحو ، ستأخذ الخبز من أفواهنا ! . ولا يكون جوابه الوحيد إلا ابتسامة ازدراء .

يدل ذلك على أن مونشي كان سهل الانقياد بالكلمات الرقيقة ، وكان بإمكاننا إقناعه كلما أردنا أن يكتب إلى مسؤولي المدرسة للسماح لنا بالتغيب . لم يحفل المسؤولون بالتدقيق في هذه الرسائل ، لعلمهم أن وجودنا أو غيابنا سواء ولا يؤثر على النتائج التعليمية .

أصبح عندي الآن مدرسة خاصة بي مهياً فيها الطلاب لكل صنوف الأذى ، الآن الطلاب دائماً عابثون والمدراء متسامحون . إذا هاج أحدنا ثائراً لسلوكهم وحرضه ذلك لاتخاذ قرار بما يستحقونه من عقاب ، تواجهني آنامي أيام الدراسة مويخة متجهمة .

أرى بجلاء أن الخطأ يقبع في الحكم على الأولاد من خلال قيم البالغين ونسيان أن الولد سريع ومتحرك مثل سيل جارف ، ولا حاجة لأي شائبة لإثارة مخاوف لاداعٍ لها ، لأن سرعة جريان السيل نفسها هي خير علاج ، حيث يحل الركود يكمن الخطر ، وعليه فإن على المدرس أكثر من التلاميذ الحذر من فعل الزلل .

كان هناك مقصف للطلاب البنغاليين لإشباع متطلبات طبقتهم المغلفة ، ومكان نتعرف فيه على الآخرين ونقيم معهم الصداقات .

كانوا جميعاً أحسن مني ، واحد منهم يستحق الذكر باستطراد . كان حقل اختصاصه هو فن السحر إلى حد أنه كتب ونشر كتيباً صغيراً حول الموضوع تحمل صفحته الأولى اسمه تحت كنية بروفيسور . لم أقابل من قبل طالب مدرسة أعماله منشورة لذا كان تبجيلي له ، أعني كبروفيسور في السحر عظيماً . كيف سمحت لنفسني بالاعتقاد أن أي شيء مشكوك فيه يمكن أن يجد طريقة مباشرة إلى مرتبة الحروف المطبوعة ؟! كلما كانت مقدرة المرء على تسجيل كلماته بحبر يتعذر إزالته أمراً نافعاً ؟! كيف يمكن للإنسان كبح الإيمان حيال مثل هذه الثقة العظيمة بالنفس حين يقف مكشوفاً بلا خجل وهو يدلي باعتراف شخصي أمام العالم ؟ أذكر أنني حصلت مرة على أحرف اسمي من مطبعة ، يا لها من ذكرى عندما حبرتها وطبعتها على الورق ورأيت اسمي مطبوعاً .

كان هذا الزميل في المدرسة والصدیق المؤلف يركب في عربتنا حين نذهب إلى المدرسة . بعد وقت وجيز أصبحنا نزاور . كان متفوقاً أيضاً في التمثيل المسرحي . نصبنا بمساعدته خشبة مسرح في الجزء المخصص للمصارعة في بيتنا بمد ورق مصبوغ على هيكل عيدان البامبو المشقوقة ، غير أن قراراً سلبياً قاطعاً من الطابق العلوي منع عرض أي مسرحية عليها . مع ذلك قدمت مسرحية مفارقات كوميدية في وقت لاحق دون وجود مسرح بتاتاً سبق وأن قُدم كاتبها للقاريء ، الذي لم يكن سوى ابن أخي ساتيا .

قد يصدم من يراه الآن هادئاً رزيناً عندما يعرف الحيل التي اخترعها .
 وقع الحدث الذي سأرويهِ بعد ذلك بقليل عندما كنت في الثانية عشرة
 أو الثالثة عشرة ، كان صديقنا الساحر يتحدث عن الأشياء بطرق غريبة
 جعلتني أتلُف من فرط فضولي لرؤيتها شخصياً ، غير أن المواد التي
 اعتاد أن يذكرها كانت نادرة جداً ، أو بعيدة المنال إلى حد يصعب على
 الإنسان الحصول عليها دون مساعدة السندباد البحري . رغم ذلك
 نسي البروفسور نفسه مرة وذكر أشياء سهلة المنال . من يصدق أن
 البذرة إن وضعت وجففت إحدى وعشرين مرة في عصارة بهارات
 الصبار يمكن أن تتبرعم وتزهر وتثمر في مدة ساعة واحدة؟ صممت
 على تجربة ذلك ، طبعاً دون أن أجرؤ على الشك في تأكيدات
 البروفسور الذي ظهر اسمه على كتاب مطبوع . أقنعت بستاني
 حديقتنا أن يزودني بكمية كبيرة من العصير اللبني ، وفي عصر يوم
 أحد أخذت نفسي وذهبت إلى الركن الغامض الخاص في سطح البيت
 لأجري تجربتي على نواة مانجو . انهمكت في مهمتي من الغمر
 والتجفيف بسرعة . لعل القارئ البالغ ليس بحاجة لأن ينتظر ويسأل
 عن النتيجة ، في غضون ذلك لم أعلم أن ساتيا قد نجح في ركن آخر
 في جعل نبتة غامضة من صنعه تطلق جذوراً وتتبرعم في مدة ساعة
 وتحمل فاكهة غريبة لاحقاً . بعد تجربتي أدركت تدريجياً أن البروفسور
 صار يتحاشاني ، لا يجلس في نفس الطرف الذي أكون عليه في العربة
 ويدأ أنه يغالب شعوراً بالخجل مني .

اقترح فجأة في يوم ما أن يقفز كل منا من على مقعد غرفة الدراسة بالتناوب . قال إنه يريد أن يرى الفرق في أسلوب القفز . لم يكن مثل هذا الفضول العلمي غريباً على بروفيسور سحر . قفزنا جميعاً . هز رأسه وتمتم «هممم» بصوت مكتوم . لم يكن لأي قدر من التعلق أن يستخلص منه أكثر من ذلك .

في يوم آخر أخبرنا أن بعضاً من أصدقائه المقربين يودون التعرف علينا وطلب منا أن نصحبه إلى بيتهم . لم يعارض حراسنا فذهبنا إليهم . كان حب الاستطلاع يهيمن على الحضور في الغرفة وأعربوا عن اشتياقهم لسماع غنائي . غنيت أغنية أو أغنيتين . كنت مجرد طفل ومن غير المرجح أن يكون صوتي مثل خوار ثور ، «صوت عذب» قال الجميع .

عندما وضعت المرطبات أمامنا ، جلسوا حولنا وراحوا يرقبونا ونحن نأكل . كنت خجولاً بطبيعتي وغير معتاد على صحبة الغرباء ، علاوة على أن العادات التي تعلمتها تحت إشراف خادمتنا أشوار جعلتني قليل الأكل إلى الأبد . تركت هشاشة شهيتي انطباعاً حسناً لدى الجميع . تلقيت في آخر فصل من هذه المهزلة بعض الرسائل الحارة من بروفيسورنا تفسر الوضع برمته .

لتسدل الستارة هنا . علمت فيما بعد من ساتيا أنه نجح في إقناع البروفيسور حين كنت أمارس السحر على بدور المانجو أن خدامنا يلبسونني ملابس ولد لأحصل على تعليم أفضل فقط ، لكن في الواقع

هذا مجرد تنكر فقط . عليّ أن أفسر لمن عندهم فضول حول علم الخيال أنه من المفترض أن تقفز الفتاة بقدمها اليسرى أماماً ، وهذا ما فعلته في امتحان البروفسور أدركت قليلاً عظم وهول الخطوة الخاطئة التي خطوتها .

أبي

اعتاد والدي بعد مولدي بقليل على الترحال الدائم ، لذا لا أبالغ إن قلت إنني بالكاد كنت أعرفه في طفولتي المبكرة . كان يعود للبيت بين وقت وآخر فجأة ويصحبته خدم غرباء ، أتوق كثيراً لصدقاتهم . جلب معه مرة خادماً بنجائياً شاباً اسمه لينو . كانت حرارة الاستقبال التي قوبل بها تليق بالمهرجا رابجيت سنجه بنفسه . لم يكن أجنبيّاً فحسب ، بل بنجائياً أيضاً ، الأمر الذي سلب منا القلوب . كنا نكن نفس التبجيل لكل الأمة البنجابية التي نكنها لهما وأرجونا في ميهاباراتنا . كان من المقاتلين الذين إن خسروا حرياً في بعض الأحيان فإن ذلك يعود بلا شك إلى خطأ العدو . كان شأناً عظيماً أن نستضيف لينو البنجابي في بيتنا .

كان عند زوجة أخي أنموذج سفينة حربية تحفظه في وعاء زجاجي يموج بأمواج من الحرير الأزرق عندما يعبأ للعمل على نغمات رنين صندوق موسيقي . كنت أتوسل إليها أن تعيرني إياه لأعرض عجائبه على لينو المبجل . لكوننا كنا سجناء في البيت ، فإن لأي شيء ذي نكهة أجنبية فعل سحر خاص . لعل هذا أحد أسباب اهتمامي الكبير

بلينو ، ويفسر هذا لم أثارني جابريل اليهودي أيضاً الذي جاءنا لبيع
العطور وزيت الرائحة بسترته الطويلة المطرزة ، ولماذا أطلق الكابوليس
الضحخم العنان لفكري في أحلام رهيبة بسرراويلهم الواسعة المغبرة
وحقائب ظهورهم والرزم التي يحملونها .

لذا عندما قدم أبي كنا في غاية السعادة للاختلاط ببطانته وخدمه ،
وإن لم نحقق ذلك عملياً . مرة حين كان والدي في الهملايا ، ذلك
القول القديم للحكومة الإنجليزية ، أصبح الغزو الروسي موضوعاً يثير
الحديث بين الناس . ضحخت سيدة حسنة النية من صديقات والدي
الخطر الداهم ، وأسهمت بكل أحلام الخيال الخصب . كيف يمكن لأي
إنسان أن يوضح من أي عمرات التبت يمكن للجيش الروسي أن يتقدم
فجأة مثل مذنب مشووم ؟

أصاب الفزع أمي بشكل جدي ، وربما لم يشاركها أفراد الأسرة
الآخرين في هواجسها ، لذا طلبت مساعدتي الطفولية وقد يشتت من
عطف البالغين «ألن تكتب لوالدك عن الروس؟» قالت لي . كانت
رسالتي المحملة بأنباء قلق أمي رسالتي الأولى لأبي . لم أعرف كيف
أستهلها أو أنهيه ، أو أي شيء عنها . ذهبت إلى ماهافاندا ، إلى مكتبنا
في مونشي . كان شكل الخطاب في المحصلة الأخيرة صحيحاً بلا
ريب ، غير أن العواطف عجزت عن تجنب النكهة القديمة المبتدلة
الملازمة للمراسلات الصادرة من المكاتب العقارية .

تلقيت رداً من أبي ، طلب فيه مني أن لا أخاف إذا جاء الروس

فسوف يطردهم بنفسه . لم يخلص تأكد الثقة هذا أمني من مخاوفها ، ولكن فعله هان في تحريري من كل خجل في ما يتعلق بعلاقتي بأبي . بعد ذلك أردت أن أكتب له كل يوم وبهذا أزعجت ماهافاندا الذي لعدم صموده أمام إلحاحي كان يكتب لي المسودات أنسخها فيما بعد . لكنني لم أعرف أنه يجب دفع ثمن لإرسال الرسائل . كنت أظن أن المسائل إن حُلت في يد ماهافاندا تصل إلى هدفها دون حاجة لعناء . من غير الضروري إضافة أن لماهافاندا من العمر ما يكفي لضمانه أن هذه الرسائل لم تصل إلى قمم جبال الهملايا أبداً .

عند عودة أبي بعد طول غياب . ولو لبضعة أيام ، كان البيت كله يعتليء بوقار حضوره . كنا نرى من يكبروننا في ساعات معينة يمرون إلى حجرة مرتدين ثوب الجوكاس الرسمي متحفظن في مشيتهم ، وفي طلعة رزينة ويلقون اللبان الذي يعلكونه في أفواههم جانباً . كان الجميع متحفزين وعلى أهبة الاستعداد . أمني تشرف على طهي الطعام بنفسها حتى تتأكد أن كل شيء يسير على مايرام . ويحذرنا الخادم العجوز كينو ذو البزة البيضاء والعمامة المتوجة بعرف ، الواقف قرب باب أوي ، من الصخب في الشرفة الواقعة أمام حجرته أثناء قبولته في الظهيرة . كنا نمر من هناك بهدوء وتكلم همساً ولا نجرؤ حتى على إلقاء نظرة إلى الداخل .

جاء والدي في إحدى المناسبات ليتفقد ثلاثتنا بالحيط المقدس . جمع بمساعدة البانديت فيدانتافاجيش لهذه الغاية طقوس الفيدا القديمة .

دربنا لعدة أيام كيف نشدو بلهجة صحيحة مختارات من «أوبانيشادس» الموزعة تحت اسم «براهما دهارما» ، وأبي جالس في قاعة الصلاة مع بشارام بابو . أخيراً برووسنا الحليقة وأقراط حلق ذهبية في آذاننا ، ذهب البراهمايون الثلاثة الناشئين إلى مأوى الرياضة الروحية في الطابق الثالث لمدة ثلاثة أيام . كان ذلك متعة عظيمة . وفرت لنا الأقرام مماسك جيدة لشد آذان بعضنا بعضاً . كنا نقف على الشرفة ومعنا طبل صغير وجدناه في إحدى الغرف نقرعه حين نلمح خادماً ماراً في الطابق السفلي ، مما يجعل الرجل يلقي بنظرة إلى أعلى ، ثم يحول بصره وينسحب بسرعة متراجعاً في لحظة . من المؤكد أننا لاستطيع الادعاء بأننا كنا نقضي أيام عزلتنا في تأمل زاهد .

قناعتي أن أولاداً مثلنا لا بد أنهم تواجدوا في تراث الأقدمين . إذ قالت وثيقة قديمة إن سارادواتا أو سارامجارانا اللذين كانا في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر ، قضيا كل طفولتهما يقدمان القرابين وينشدان المانترا ، فإننا غير مجبرين على عدم الشك في صدق هذه الوثيقة ، لأن كتاب طبيعة الأطفال ، أقدم وأكثر أصالة أيضاً .

عندما استكملنا البراهمينا ، صار لي ميل لإعادة «الجاياتري» لأثابها بتركيز عظيم ، إنها نص يصعب فهم معانيه كاملة في ذلك العمر . أذكر جيداً الجهد الذي بذلته لتوسيع مدى فهمي بمساعدة الابتهاال الأولي «الأرض ، القبة الزرقاء ، السماء» ، كيف أحسست أو فكرت بصعوبة التعبير عنها بوضوح ، لكن ما أنا متأكد منه ، أن وضوح معنى

الكلمات ليس أكثر الأجزاء أهمية في عملية الفهم الإنساني . ليس الهدف الرئيسي للتعليم تقديم التفسيرات ، بل القرع على أبواب العقل . لو طلب من أي ولد تقديم وصف لما أيقظ فيه هذا القرع ، ربما سيتفوه بأشياء سخيفة ، لأن ما يجري في العمق أكبر بكثير مما يخرج من الكلمات . لا يعير الذين يضعون ثقتهم في الفحوص الجامعية كامتحان للتعليم أي اعتبار لذلك .

بميسوري استعادة أشياء جمّة لم أفهمها ، لكنها أثارتني بعمق . مرة على سطح بيتنا النهري ، عند تراكم الغمام فجأة . ألقى أخي الأكبر بصوت جهوري بعض المقاطع من «رسول الغمام» لكاليداس . لم أكن لأفقه كلمة من السنسكريتية ، ولم أكن بحاجة لذلك . كان إلقاؤه الوجداني والإيقاع الرنان كافيين بالنسبة لي ، ثم في مرة أخرى ، قبل أن أفهم الإنجليزية بشكل صحيح وقعت بين يدي نسخة من «حانوت الغرابة القديم» بصور توضيحية غزيرة . قرأته كله رغم جهلي لتسعة أعشار الكلمات الواردة فيه . مع ذلك نسجت من الأفكار الضبابية التي يستحضرها ماتبقى من الكتاب خيطاً متنوع الألوان تربط به الصور التوضيحية . ربما سيعطيني أي مدرس جامعي صفراً ، لكن بالنسبة لي لم تكن قراءة الكتاب خاوية عديمة الجدوى تماماً .

مرة أخرى ، صاحبت أبي في رحلة عبر نهر الجانجس في قاربه المعد للسكن . من بين كتبه كانت هناك نسخة قديمة من منشورات فورت ولیم لكتاب جاياديفا «جيتا جوفنيدا» مطبوع بالأحرف البنغالية . لم

تكن القصائد مقسمة إلى أبيات ، بل تجري متواصلة مثل النثر . لم أعرف السنسكريتية آنئذ ، لكن بسبب معرفتي للبنغالية ، كانت كثير من الكلمات مألوقة . لا أدري كم مرة قرأت هذا الكتاب ، أذكر هذا البيت بشكل خاص :

ينطفئ الليل في منفى غابة منعزلة

بعث هذا البيت حساً بالجمال في ذهني . كانت الكلمة السنسكريتية nibhrita- nikunja- griham التي تعني «منفى غابة منعزلة» كافية لي . توجب عليّ أن أستنبط بنفسني الوزن المعقد لشعر جايا ديفا ، لأن حدود الأبيات فقدت في الشكل الثري الأخرق للكتاب . كان هذا الاكتشاف مصدر متعة عظيمة لي . بالطبع لم أفقه معاني جايا ديفا كاملة . في الواقع يصعب القول بصدق أنني فهمتها بشكل جزئي . غير أن صوت الكلمات وخفة إيقاع الوزن ملأت ذهني بصور فخمة لدرجة دفعتني أن أنسخ الكتاب كله لاستعمالي الخاص .

حدث نفس الشيء عندما كنت أكبر بقليل مع قصيدة من «مولد إله الحرب» لكاليداس . أثارت القصيدة مشاعري حقاً رغم أن الكلمات الوحيدة التي فهمتها هي «يبعث النسيم العليل الرذاذ من مياه ماندانتي المتساقطة المقدسة ، وتهتز أوراق أرز الهملايا» . لقد تركتني هذه الكلمات مسمراً في مكاني لأتذوق كل القصيدة . حين شرح لي مدرس في وقت لاحق أن النسيم في البيتين اللاحقين «يشق ريش ذيل الطاووس على رأس صائد الغزلان المتلهف» خيب نحل الصورة

ظني . كنت في وضع أفضل عندما اعتمدت علي مخيلاتي فقط لإتمام القصيدة .

سيوافق كل من يعود إلى طفولته المبكرة على أن أعظم مكتسباته لا تجاري كمال فهمه . عرف هذا شعراء ملاحمنا جيداً . في حفلات إلقاءهم العامة كانت قصصهم دائماً تتضمن كمية كبيرة من الكلمات السنسكريتية التي تملأ الأذان والملاحظات المبهمة الغامضة المدروسة بحيث لا تفهم تماماً من قبل مستمعيهم البسطاء ، بل تكون موحية فقط .

يجب أن لا يستخف في قيمة مثل هذا الإيحاء بأي شكل من قبل اللذين يحكمون على التعليم من خلال ميزان الريح والخسارة المادية . يصرون على إحصاء الحساب ليجدوا كم يمكن أن يستخلص من الدرس بالضبط . لكن الأطفال ومتواضعي التحصيل العلمي يقطنون في هذه الجنة الأولى حيث يمكن للناس جني المعرفة دون الفهم الكلي لكل خطوة وشاردة . فقط حين نفقد هذه الجنة يأتي يوم الشيطان حين يتوجب فهم كل شيء . الطريق التي تقود إلى المعرفة دون اللجوء إلى عملية الفهم الرهيبة هي الطريق الممتازة الهينة . إذا سد هذا الدرب ، حتى ولو استمر الاتصال ، فإن البحر الشاسع وقمم الجبال ستغدو غير ممكنة المنال .

لذا ، كما أسلفت ، رغم أنني لم أدرك في ذلك العمر ، معنى جاياتري الكامل إلا أن جزءاً مني كان بإمكانه التقبل دون الفهم التام . يذكرني

هذا بيوم كنت أجلس فيه على الأرض الأسمتية في ركن غرفة فصلنا
أفكر متأملاً في نص الكتاب ، عندما امتلأت عيوني بالدموع . لماذا؟ لا
أدري . ربما أقدم تفسيراً إلى محقق متشدد لا يمت إلى جاياتري بصلة .
الواقع أن ما يدور في أعماق الوعي غير معروف دائماً للقايع على
السطح .

رحلة مع أبي

سبب لي رأسي الحليق بعد احتفال الخيط المقدس قلقاً عظيماً . مهما كان الأولاد الأوراسيون محابين بخصوص البقرة المقدسة ، فمن المؤكد أن احترامهم للبراهمية ضئيل . توقعت ذلك بصرف النظر عن القذائف الأخرى . لا ريب أن رؤوسنا الحليقة كانت ترشق بالملاحظات الساخرة . وأنا في غمرة القلق هذا ، دعيت إلى حجرة أبي في الطابق العلوي . هل أحب الذهاب معه إلي الهملايا ؟ سألني بعيداً عن الأكاديمية البنغالية والذهاب إلى الهملايا !! هل أحب ذلك ؟ !! كنت بحاجة لصبيحة تشق السماء لأعرب عن فكرة صغيرة ، عن هل ؟

في يوم رحيلنا ، جمع والدي كعادته كل العائلة في قاعة الصلاة من أجل صلاة جماعية . بعد أن لمست أقدام إخوتي الكبار احتراماً ، صعدت إلى العربة مع والدي . كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي يحاك لي فيها طقم كامل من الملابس . اختار أبي بنفسه القماش ولونه . وأكمل زني طاوية مخملية مطرزة بالذهب ، حملتها في يدي لريتي من تأثير وضعها على رأسي الأجرد من الشعر . حين صعدت

إلى العربة أصر والدي عليّ بلبسها ، لذا توجب عليّ فعل ذلك . كنت أخلعها كلما نظر إلى الجهة الأخرى وأعيدها إلى موضعها فوق رأسي كلما التقت عيوننا . كان والدي دقيقاً جداً في كل ترتيباته ويكره ترك الأمور مبهمة دون اتخاذ قرار بشأنها ، ولم يسمح إطلاقاً بقدارة الجسم أو أي بديل مؤقت مكانها . كانت له مجموعة قوانين محددة تماماً لتنظيم علاقاته مع الآخرين وعلاقتهم معه . كان في ذلك يختلف عن الأغلبية العظمى من مواطنيه . ولم تكن لبيته القليلة معنا تعني كثيراً ، لذا كنا في غاية الحذر في تعاملنا معه . لم يكتثرت لحجم أو أهمية واجب ما بقدر اهتمامه بالفشل في حفظ المستوى المطلوب .

كانت لأبي طريقة في تصور كل تفاصيل ما يود عمله . في مناسبات الاحتفالات الجماعية التي لم يقدر على حضورها بنفسه ، كان يعين مكاناً لكل شيء وواجباً لكل فرد في الأسرة ومجلساً لكل ضيف ، ولا يغفل شيئاً . بعد نهاية الاحتفال كان يسأل كل فرد عن وصف مستقل وبذلك يحصل على انطباع كامل عن مجمل الاحتفال . لذا عندما كنت معه في الرحلة ورغم انعدام ما يحثه على التدخل ليسأل كيف أستمتع بوقتي ، لم يترك منفذاً في قوانين السلوك الصارمة المفروضة عليّ مفتوحاً .

كانت أول وقفة لنا في بولبور لبضعة أيام ، حيث سبقنا ساتيا إلى هناك مع والديه قبل وقت قصير . لم يكن أي ولد يحترم نفسه في القرن التاسع عشر يصدق الوصف الذي يقدمه عن رحلة عند عودته .

غير أنني كنت مختلفاً ، ولم تسنح الفرصة لي لتعلم تحديد الخط
الفاصل بين الممكن وغير الممكن . لم تقدم لنا ميهار بهاراتا أو راميانا أي
إشارة ، لذلك تعلمنا كل القوانين الصارمة التي تحكم العالم ولا سبيل
لائتهاكها بالتجربة .

أخبرنا ساتيا أن الركوب في القطار أمر خطير مالم يكن الإنسان خبيراً
فوق العادة ، أقل زلقة وينتهي كل شيء ، وعلى المرء أن يقبض على
مقعده بكل قواه وإلا فإن الرجة الهائلة عند الانطلاق قد تقذفه إلى ما
لم يخبرنا به .

عندما وصلنا إلى محطة سكة الحديد ، كنت أرجف بكامل كياني .
دلغنا مقصورتنا بسهولة فائقة وشعرت بأن الأسوأ قادم لامحالة .
وعندما انطلقنا بعد انتظار بانسياب لا يصدق دون أي إشارة إلى مغامرة
أحسست بخيبة أمل فاجعة .

أسرع القطار ومرت الحقول الفسيحة المحاطة بالأشجار الخضراء
المزروقة المستكنة في ظلها القرى كسيل صور تتلاشى ببطء مثل فيض
السراب . كان المساء قد حل عندما وصلنا بولبور . أقفلت عيني حين
امتطيت المحفة . أردت أن أحفظ بروعة الرؤيا كلها في نور الصباح
مفروشة أمام عيني المستيقظتين . خشيت أن تفسد النظرات الناقصة
التي تلمح في ضبابية الشفق جدة التجربة . كنت في غاية الإثارة حين
استيقظت في الفجر وخطوط خارجاً . أخبرني أسلافي أن في بولبور
أحد المعالم التي لا توجد في أي جزء آخر في العالم ، عمر يقود من

المباني الرئيسية إلى أجنحة الخدم ، لا يسمح لأشعة الشمس أو قطرة مطر أن تلمس أي شخص يمر عبره رغم أنه غير مسقوف بأي شكل من الأشكال . رحت أبحث عن هذا الممر الرائع . إلا أن القاريء ربما لن يتعجب لفشلي في العثور عليه إلى يومنا هذا .

لكوني ابن مدينة ، فإني لم أر حقل أرز من قبل ، ولديّ صورة ساحرة لراعي الأبقار الصبي الذي قرأنا عنه ، مصورة على قماش مخيلتي ، سمعت من ساتيا أن بيت بولبور محاط بحقول أرز ناضجة وأن اللعب فيها مع رعاة البقر الصبيان أمر عادي حيث جَنِّي وطَهِّي وأكل الأرز هي الميزة البارزة . تفحصت ماحولي بلهفة . أين حقل الأرز في كل هذه الأرض البور؟ لعل رعاة البقر الصبيان في مكان ما حولنا ، لكن السؤال ، كيف يمكن تمييزهم من الصبية الآخرين ؟ !

لم يأخذني ما عجزت عن رؤيته وقتاً طويلاً لتجاوزه ، ماشهده كان كافياً ، لم تكن هناك قوانين خدم ، والحلقة الوحيدة التي أحاطت بي هي زرقة الأفق التي تشدها حول هذه الأماكن المنعزلة آلهتها السائدة . كنت طليقاً لأجول في حدود تلك المنطقة كما أهوى . لم يضع أبي أي قيود على تجوالي مع أنني كنت مجرد طفل . في تجاوير التربة الرملية حرث ماء المطر أخاديد عميقة ، وشكّل سلسلة من الكتل الصغيرة المليئة بالحصباء الحمراء والحصى المتنوعة الأشكال تمر عبرها السيول الصغيرة ، كاشفة جغرافية ليلليبيوت . من تلك المنطقة كنت أجمع في حجر ثوبي الطويل حجارة كثيرة غريبة وأجلبها إلى أبي الذي لم

يستخف أبدأ بمجهودي ، على النقيض كان يتحمس لها .

«رائع» هتف من أين حصلت على كل هذه؟

«هناك أكثر وأكثر بكثير ، ألوف مؤلفة!» أجيب بانفعال .

«أستطيع أن أجلب كثرها كل يوم» .

«سيكون هذا لطيفاً» «أجاب» لم لاتزين تكتي الصغيرة بها؟» حاولت حفر حوض في الحديقة ، لكن مستوى الأرض المشبعة بالماء كان منخفضاً ، لذا توقف الحفر الذي ترك خلفه رابية ترابية كان أبي يجلس على قمعتها عند صلاته الصباحية عند شروق الشمس على حافة الرقعة المنفسحة المتموجة الممتدة إلى الأفق الشرقي أمامه . كانت هذه هي التلة التي طلب مني تزيينها .

كنت في غاية الضيق يوم تركنا بولبور إلى حد أنني لم أقدر على أخذ حصيلتي من الحجارة . لم أعرف وقتها حق الملكية العقارية وأنه لا يحق لي الادعاء المطلق على شيء لأبي جمعته فقط . لو أن القدر استجاب إلى صلاتي ونفذ ما أشتيه كثيراً وكتب لي أن أحمل هذا الحمل من الحجارة معي إلى الأبد . لما كانت هذه القصة اليوم أمراً مضحكاً .

وجدت بالصدفة في أحد الوديان الصغيرة الضيقة حفرة مليئة بماء نبع طفئ مثل جدول صغير تلعب فيه الأسماك الصغيرة وتشق طريقها عبر التيار «وجدت نبعاً جميلاً» أخبرت والدي «هل يمكن أن نأخذ ماء شربنا واستحمامنا منه؟» .

«أمر مثالي» قال موافقاً يشاركني بهجتي ، وأصدر أوامره بأن تؤخذ

حاجتنا من الماء من ذلك النبع .

لم أتعب مطلقاً من التجوال في تلك الوديان الصغيرة والسهول الشاسعة لعلني أقع بالصدفة على شيء لم يكتشف من قبل . كنت ليفنجنستون تلك الأراضي التي تبدو كما لو إنها تشاهد من الطرف الخاطيء للمنظار المقرب . كان كل ما هناك من النخيل الصغير وشجر الخوخ البري القصير إلى شجر الجامبالان المعوق النمو يجاري سلسلة الروابي الصغيرة والجدول والسّمك الصغير .

ربما ليعلمني معنى الحرص ، وضع أبي في إمّرتي بعض النقود وطلب مني أن أحفظ حساباً بها . وثق بي أيضاً بتعبئة ساعته الذهبية الثمينة ، متغاضياً عن المجازفة بخرابها وذلك لرغبته تدريبي على الحس بالواجب عندما خرجنا معاً في نزهتنا الصباحية سيراً على الأقدام ، طلب مني أن أوزع الصدقات على الشحاذين الذين نصادفهم . لم أقدر على تقديم حساب صحيح له إطلاقاً . في أحد الأيام كان باقي الحساب أكبر ضماناً .

«يجب أن أعينك أمين صندوقي» علق والدي «يبدو أن النقود تتزايد في يدك» .

عبأت ساعته بحماس لا يعرف الكلل . بعد وقت قصير توجب إرسالها إلى مصلح الساعات في كلكتا .

يذكرني ذلك بأوقات لاحقة حين كنت أقدم حسابات الممتلكات لوالدي الذي كان يقطن آنذاك في برك ستريت . كنت أفعل ذلك في

الثاني أو الثالث من كل شهر . لم يكن بإمكانه أنثذ قراءتها بنفسه . كان عليّ أن أقرأ المبلغ الإجمالي تحت كل باب وإذا كان عنده شك في أي نقطة يسأل عن التفاصيل . إذا كنت أحاول التفاوضي أو إخفاء أي بند أخشى أن لا يعجبه ، من المؤكد أنه يسأل عنه . كانت تلك الأيام الأولى من كل شهر مدعاة للقلق بالنسبة لي . كما أسلفت ، اعتاد أبي أن يحفظ كل شيء واضحا في عقله ، سواء كان ذلك أرقام حسابات أو تنظيمات رسمية أو زيارات أو تعديلات على الممتلكات . لم يشاهد قاعة الصلاة الجديدة في بولبور إطلاقاً ، غير أنه كان على علم بكل تفاصيلها من سؤاله اللذين جاءوا لرؤيته بعد زيارة المكان هناك . كانت ذاكرته غير عادية لا تبحر عنها معلومة إذا دلفت إليها .

وضع أبي إشارات على قصائده المفضلة في نسخته من «بهاجافادجيتيا» وطلب مني نسخها له وترجمتها . كنت في البيت صبيّاً بلا اعتبار ، لكن حالما أوكلت إليّ هذه المهام شعرت بعظمة المنصب .

في غضون ذلك كنت قد تخلصت من دفثري الأزرق وحصلت على مجلد من يوميات ليتس . أصبحت أعتقد الآن أن على شعري التحلي بالجلال الشكلي . ليس الأمر مجرد كتابة قصائد ، بل الحفاظ على صورة لنفسك كشاعر إزاء مخيلتي . حين كتبت الشعر في بولبور كنت أحب فعل ذلك وأنا عمدت تحت فيء شجرة جوز هند صغيرة . بدا لي أن هذا هو السلوك السليم . وهكذا جالسا على الحصى القاسي غير

المكسو بالأعشاب تحت قیظ النهار الحارق ، نظمت أغنية عسكرية .
حول «هزيمة الملك بريثي» ، لم تنجُ من الموت المبكر رغم فیض روحها
العسكرية . تبع هذا المجلد من يومیات لیتس نفس درب أخیه الأكبر ،
دفتری الأزرق ، دون أن یخلف أثراً مبكر النضج .

غادرنا بولبور وتوقفنا قليلاً في الطريق في صاهيجانج ، ودينابور
والله آباد ، وكانبور ، وأخيراً توقفنا في أمرتيسار .

بقيت حادثة في الطريق محفورة في ذاكرتي ، وقف القطار في محطة
كبيرة ، جاء جابي التذاكر وثقب التذاكر ، نظر إليّ باستغراب كما لو
أن عنده شكاً لا یود الإقصاح عنه . ذهب وعاد مع زمیل له . تململ
الاثنان بعصبية لوهلة قرب باب مقصورتنا ثم ذهبا مرة أخرى . أخيراً
جاء مدير المحطة بنفسه . نظر إلى البطاقة المخفضة وسأل « أليس هذا
الصبي فوق الثانية عشرة من العمر؟ » .

« كلا » أجاب والذي .

كنت في الحادية عشرة حين ذاك ، لكن كنت أبداً أكبر من سني .
« عليك بدفع التعریفة الكاملة عنه » أردف مدير المحطة .

لمعت عیون أبي ، ودون كلمة أخرج من صندوقه ورقة مالية وقدمها
إلى مدير المحطة ، عندما عادوا ببقية المبلغ لأبي قذفهم به بازدرأ ومدير
المحطة مرتبك واقف بخجل لكشف خسة شكه هذا .

أسترجع المعبد الذهبي في ذاكرتي كالحلم . كثيراً ما اصططحت أبي
في الصباح إلى جوروداريار السيك هذا الجاثم في وسط البحيرة ،

حيث تسمع التراتيل المقدسة باستمرار . كان والذي يضم صوته أحياناً إلى ترنيمة التسبيح وهو جالس بين حشد المتعبدين الذين يرحبون بأي غريب ينضم إلى صلاتهم بحرارة والذي يعود محملاً بالعطايا الطاهرة من السكر البلوري والحلويات الأخرى . في أحد الأيام دعا والذي أحد أفراد جوقة المنشدين إلى بيتنا حيث أنشد بعض الأغاني المقدسة . ذهب الرجل أكثر من راضٍ على المكافأة التي حصل عليها . بعد ذلك صار علينا أن نتخذ إجراءات صارمة للدفاع عن النفس ضد غزو جيش ملحاح من المغنين . حين وجدوا البيت منيعاً ، راح الموسيقاريون يكمنون لنا في الشوارع . في الصباح ساعة نخرج من بيتنا للنزهة سيراً على الأقدام ، يظهر تانبور معلقاً على كتف بين الفينة والأخرى . أصبحنا مثل طرائد صيد تلاحقها فوهة بندقية الصياد ، وفي غاية القلق يفزعنا أي رنين تانبور ولو من بعيد ونفر منها دون أن نتجح في اصطيانا .

حين يحل المساء ، كان أبي يجلس على الشرفة المقابلة للحديقة ويستدعيني لأغني له . كنت أرى بزوغ القمر يصب نوره الوضيء على أرض الشرفة عبر الأشجار وأنا أشدو راجا بيهاج :
يارفيقي في أعم عمرات الحياة
يستمتع أبي برأسه المطرق ويديه المضمومتين بإصغاء . أذكر المشهد

* راجا بيهاج : واحدة من أنماط الألحان التقليدية القديمة في الموسيقى الهندوسية (الترجم)

المسائي بكل وضوح . سبق وأن أخبرتكم عن متعة أبي حين سمع من
سريكانتا بابو عن محاولتي البكر في القصيدة التعبدية . أذكر كيف
حصلت بعد ذلك على تعويضي . كان العديد من الترانيم في إحدى
مناسبات احتفالات Magh من تأليفي والتي تقول إحداها :

العين لا تراك ، يابؤوذة كل عين

كان والدي طريح الفراش في شونشوار . أرسل في طلبي وأخي
جيوتي . سألت أخي أن يصاحبني على الأرغن وأنا أغني كل ترانيمي
واحدة تلو الأخرى ، بعضها مرتين . عندما انتهينا قال «لو أن ملك
البلاد عرف هذه اللغة واستطاع تقدير آدابها ، لأوفر العطاء ولا ريب
على الشاعر ، وحيث أن الأمر ليس كذلك ، أعتقد أن عليّ فعل
ذلك .» وناولني شيكاً .

جلب أبي معه بعض مجلدات بيتر بارلي ليدرسني منها . اختار
«حياة بنجامين فرانكلين» كبداية . حسب إنها يمكن أن تخدم كقصّة
وتكون ممتعة ومثقفة لكن سرعان ما وجد خطاه بعد أن بدأنا . كان
بنجامين فرانكلين شبيهاً برجال الأعمال أكثر مما يجب . أثار ضيق
أخلاقيته المحسوبة اشمزاز أبي . أحياناً يفقد الصبر لخصافة بنجامين
الدينيوية لحد لا يملك عدم استعمال كلمات شجب قوية .

حتى ذلك الحين لم تكن لي علاقة بالسنسكريتية أكثر من تعلم بعض
قوانين قواعد اللغة عن ظهر قلب دون فهم . بادرني أبي بكتاب قراءة
السنسكريتية الثاني بوثة واحدة تاركاً لي تعلم تصريف الأسماء أثناء

مسيرة التعليم . ساعدني تقديمي في البنغالية على جني فائدة عظيمة .
شجعني أبي أيضاً على الكتابة بالسنسكريتية من البداية . كوَّنت
بالمفردات التي حصلت عليها من كتاب قراءة السنسكريتية كلمات
مركبة متسمة بالمبالغة الحمقاء ومسرقة باستعمال الحرفين «م» و «نون»
الطنانين جعلت لغة الأكله خليطاً شيطانياً كبيراً . إلا أن والذي لم يهزأ
من طيشي إطلاقاً .

ثم كانت هناك قراءات من كتاب «علم الفلك العام» لبروكتور ،
فسرها لي والذي بلغة سهلة فيما بعد إلى البنغالية . من بين الكتب
التي جلبها والذي لاستعماله الخاص والتي غالباً ما وجدت نفسي
أحدق بها هي العشرة أو الاثنا عشر مجلداً من طبعة جيون «روما» .
كانت تبدو جافة جداً ، وكنت مجرد ولد عديم الخيلة . حسبت أن
عليّ قراءة أكبر عدد من الكتب لأن عليّ فعل ذلك . لكن لماذا يتوجب
على رجل بالغ غير مجبر على القراءة ، إلا إذا أراد ، أن يزعج نفسه
بذلك ؟ ! .

في الهملايا

مكثنا قرابة الشهر في أمرتيسار ، وفي منتصف شهر أبريل انطلقنا إلى
تلال دالها وسي . بدت الأيام الأخيرة في أمرتيسار طويلة كأنها لن
تمضي والهملايا تدعوني بقوة .

كنا نرى منحدرات التلال ونحن نصعدُها في محفاتنا تلتهب
بمحاصيل نبات الربيع المزهرة . ننتقل كل صباح بحثاً عن الخبز
والحليب ، وقبل المغيب نلتجئ إلى أقرب بيت تحت التعمير . لم
ترتج عيناى لحظة طوال اليوم مخافة أن تفقد شيئاً ولا تراه . وحيثما
تشابك أشجار الغابة العظيمة عند منعطف درب لتصنع كتلة تسد
الطريق يجري من تحت فيئها مسقط ماء نحيل رقيق ، مثل ابنة صغيرة
تلهو عند قدمي حكيم جليل مستغرق في التأمل ، ويخر الماء فوق
الصخور السوداء المكسورة بالطحالب ، هنا كان حاملو المحفات
يضعون حملهم ليأخذوا قسطاً من الراحة . لماذا علينا أن نغادر مثل
هذه البقعة؟ صاح قلبي الظميء . لم لانبقى هنا إلى الأبد؟ !

الميزة العظيمة للرؤية الأولى أن العقل لا يعي قدوم المزيد ، عندما
تدلف هذه الحقيقة ذاك العضو الحاسب يحاول فوراً تخزينها

للاستهلاك ، لا يغدو العقل بخيلاً إلا عندما يعتقد أن الشيء نادر . في شوارع كلكتا ، كنت أحياناً أتخيل نفسي أجنبياً ، آنئذ فقط أكتشف معنى أن يكون المرء مرثياً . الجوع للرؤية الحقة هو ما يقود الناس للترحال في المناطق الغريبة .

ترك والدي صندوق نقوده الصغير في عهدتي ، دوغماً سبب للاعتقاد بأنني أفضل قيم على المبلغ الضخم الذي أودعه فيه لنفقات الطريق . كان يمكن له التأكيد أن يشعر بأمان أكبر لو أكل به لمرافقه كيشوري ، وعليه يمكنني الافتراض أنه أراد أن يزرع في فكرة تحمل المسؤولية . في أحد الأيام عند وصولنا إلى بيت تحت التعمير ، غفلت أن أحوله له وتركته على منضدة فأنبني على ذلك .

كلما تم تعمير بيت ، كان والدي يأمر بوضع المقاعد لنا في الخارج لنجلس ، عند حلول الغسق تتوهج النجوم بروعة في جو الجبال الصافي ، ويريني أبي مجموعات النجوم الثابتة أو يحدثني عن الفلك .

كان البيت الذي نزلنا فيه في باكرونا يقع في أعلى قمة روية ، والجو لا يزال شديد البرودة رغم اقتراب حلول شهر مايو ، وصقيع الشتاء في الجانب المظلل من التلة لم يذب بعد . لم يكن والدي عصياً لتجولي بحرية في هذا المكان . في طريقي تحت بيتنا يمتد جدر ناتيء سميك لشجرة أرز هملايا . كنت أذهب وحيداً إلى تلك القفار وعصا ذات طرف حديدي مستدق في يدي . ياللاشجار الفخمة الشاهقة فوق

مثل المردة ! يا للظلال العظيمة !! أي حياة طويلة عاشت عبر القرون !!
مع ذلك هاك الصبي الذي ولد بالأمس يدب بين جدوعها دون تحد .
خيل لي بأنني أحس بوجود روح في اللحظة التي تطأ قدمي ظلالها
كالزواحف العظائية القديمة المصنوع جسمها البارد الصلب كثير
الحراشف من مختلف الألوان ومظلل بورق أرض الغابة العفن .

كانت حجرتي في أقصى أحد أطراف البيت ، كان بإمكانني وأنا
مُستلقٍ على فراشي رؤية ذرى الجبال الثلجية البعيدة تومض بوهن
تحت ضوء النجوم عبر النوافذ المشرعة الستائر . أحياناً وأنا نصف
مستيقظ في أي ساعة لا أدري ، كنت أرى والدي متلفعاً بشال أحمر
ويده مصباح مضاء يمر بهدوء إلى الشرفة المطلية المصقولة ويجلس
ليؤدي صلاته بعد أن يغلبني النعاس أجده قرب سريري يوقظني بهزة
قبل أن يدوي الظلام من الليل . كانت تلك الساعة مخصصة لحفظ
تصريف الأسماء في اللغة السنسكريتية . يا لها من لحظة شتائية مؤلمة
من دفء الأعطية اللطيف .

عند شروق الشمس ينضم إلي والدي بعد الانتهاء من صلاته لشرب
حليب الصباح ، ومن ثم يقف لمناجاة الله مرة أخرى بغناء أو بإنشاد ،
وبعد ذلك يذهب للتنزه سيراً على الأقدام . لكن كيف لي أن أجاريه؟
كثيرون من البالغين يعجزون عن ذلك . بعد قليل أتوقف عن مجاراته
وأعود إلى البيت من طريق مختصر قصير متسلقاً سطح الجبل . عند
عودة أبي أدرس الإنجليزية لمدة ساعة وفي العاشرة أستحم بالماء

الثلجي . لا جدوى من استعطاف الخدم تلطيف حرارة الماء ولو بإضافة إيريقي من الماء الساخن دون أخذ إذن . لتشجيعي كان والذي يخبرني عن الحمامات الثلجية التي لا تطاق التي كان يتحملها في صغره .

كان شرب الحليب عقوبة أخرى . والذي مفرم بالحليب وباستطاعته شرب كميات منه ، لكن قابليتي له كانت مفقودة ، هل ذلك لأني فشلت في وراثته أم لتجاري المبكرة غير المحبة والحليب ؟ إلا أدري . من سوء الحظ اعتدنا أن نشرب الحليب معاً ، لذا توجب عليّ أن ألقى بنفسي تحت رحمة الخدم ولطفهم أو ضعفهم الإنساني ، وأكون مديناً لهم إذا ملأوا نصف قدحي برغوة الحليب . بعد الغداء تبدأ دروسنا مرة أخرى . هذا أكثر مما يستطيع اللحم والدم تحمله . فيشار رقادي الصباحي المتهك حين أخلد للسبات المهيمن . لكن ما إن يراف والذي لحالي ويطلق سراحني حتى يزول نعاسي لأبكي نداء رب الجبال .

كثيراً ما كنت أتجول من قمة إلى أخرى وعصا بيدي ، دون احتجاج والذي . لاحظت أنه لم يقف أبداً في طريق استقلالنا حتى آخر يوم في حياته . كنت مراراً أفعل أو أتفوه بأشياء لا توافق رأيه ولا ذوقه على حد سواء ، وكان بإمكانه إيقافني بكلمة . لكنه فضل الانتظار حتى يأتي حافز الإحجام من الداخل . لم يكن القبول السلبي للمصواب واللائق ليرضيه ، أراد منا أن نحب الحقيقة من صميم قلوبنا ، وكان يعلم أن

مجرد الإذعان دون الحب أمر فارغ ، ويعلم أيضاً أن الحقيقة إذا ضل عنها ، يمكن أن توجد ثانية ، لكن الالتزام الأعمى أو المفروض بالقوة يعوق في الواقع الوصول إليها .

في أيام صباي المبكرة ، كنت أحلم بالترحال في جرائد تترك ردد وحتى بشاور في عربة يجرها عجل . لم تلق الخطة التأييد من أحد ، وصدّها كثيرون كاقترح عملي ، لكن عندما أخبرت والذي بها كان على يقين بأنها فكرة عظيمة لأن السفر بالقطار لا يستحق الذكر ، واسترسل فوراً في سرد مغامراته التي قام بها سيراً على الأقدام أو ظهور الجياد ، ولم يذكر كلمة عن الخطر أو المشقة .

مرة أخرى عند بداية تعييني سكرتيراً لأدي براهو ساماج ، ذهبت لوالدي في مقر إقامته في باريك ستريت وأخبرته أنني لا أقر إقامة الشعائر الدينية الجماعية البراهمية فقط وإقصاء ممارسات الطوائف الأخرى . دون أيما تردد أعطاني الإذن لتصحيح الوضع إذا استطعت . وجدت وأنا المتسلح بالتفويض أنني أفتقر إلى القوة . كنت قادراً على اكتشاف عدم الكمال ، ولكنني عاجز عن خلقه . أين الرجال؟ أين القوة في داخلي لأجذب الرجل المناسب؟ هل أملك الوسائل لأشيد مكاناً ما يمكن أن أهدمه؟ حتى يأتي الرجل المناسب ، أي شكل أفضل من لاشيء . شعرت أن هذه وجهة نظر والدي ، غير أنه لم يحاول ولو للحظة أن يحبط من همتي بذكر هذه المصاعب .

تماماً كما سمح لي بالتجول في الجبال كما أهوى ، ترك لي الحرية في

اختيار سبيلي في طلب الحقيقة . لم يثنه عن ذلك إمكانية ارتكابي للأخطاء ، ولم يفزعه احتمال مواجهتي للمحن والأحزان . آمن برفع القيم لاعصا التأديب .

كثيراً ما كنت أتكلم معه عن البيت ، وكلما استلمت رسالة من أي كان من هناك أريه إياها فوراً . أعتقد أنني وفرت له لمحات ما كان لأحد آخر أن يوفرها ، هو أيضاً سمح لي بقراءة رسائل إخوتي الكبار له . كانت هذه طريقته لتعليمي كيف أكتب له ، لأنه لم ييخس بأي شكل المظاهر الخارجية للأعراف والتقاليد الشعائرية . أذكر كيف اشتكى أخي الثاني في إحدى الرسائل من عمله المجهد وأنه غارق حتى العنق في وظيفته معبراً عن نفسه إلى حد ما باللغة السنسكريتية . سألني والدي أن أفسر له معناها بإيجاز . قمت بذلك على طريقتي الخاصة ، لكنه ظن أن تفسيراً آخر أفضل . بغروري المتعجرف وزهوي بنفسي ، تمسكت برأيي وناقشت طويلاً . كان يمكن لشخص آخر غير أبي أن يوقفني فجأة بازدياد ، لكن والدي أصغى إليّ بصبر وتحمل العناء ليبرر وجهة نظره .

أحياناً كان يروي لي قصصاً فكاهية ، ونوادر وملحاً من أيام شبابه الجميل . قال كان ثمة متأنقون تبدو الحاشية المطرزة أو حتى موصلين دكاً الرقيق في منتهى الخشونة لجلودهم الناعمة ، ولفترة كان عندهم ارتداء الموصلين بحواش ممزقة قمة الأثافة . سررت جداً أيضاً حين سمعت أول مرة من أبي قصة بائع الحليب الذي يشك أنه يخلط

الحليب بالماء . وكلما اختار أحد زبائنه عدداً أكبر من الرجال للإشراف
على حلبه ، كلما ازداد الحليب زرقه ، أخيراً عندما استجوب الزبون
بائع الحليب بنفسه وطلب منه تفسيراً . أجاب الرجل بفظاظة أنه إذا
توجب إرضاء مراقبين أكثر فإن الحليب قد يصبح صالحاً لتربية السمك
فقط .

بعد أن قضيت بضعة شهور معه ، أعادني والدي إلى البيت مع مرافقه
كيشوري .

عودتي

انهارت قيود النظام الصارم التي كبلتني إلى الأبد حين تركت البيت .
 عند عودتي حصلت على بعض الحقوق . قبل ذلك أقصاني قربي
 الشديد من الآخرين عن فكرهم . بابتعادي وعودتي أصبحت موضع
 اهتمام . ظهرت دلالة التقدير القادم أثناء رحلة العودة التي قمت بها
 وحيداً إلا من مرافقي . كنت أطفح بالصحة والنشاط وأبدو رائعاً
 بقلنسوتي المذهبة ويلاطفني كل المسافرين الإنجليز الذين صادفتهم في
 القطار .

لم يكن وصولي مجرد عودة للبيت ، بل عودة من منفى جناح الخدم
 إلى مكاني الصحيح في المقصورات الداخلية . أصبحت أحتل مقعد
 شرف كلما اجتمع أهل البيت الداخلي في حجرة أمي . وجادت عليّ
 أصغر عروس في بيتنا بفيض من العواطف والاعتبار . في الطفولة
 يكون الحصول على رعاية المرأة وحياً دون طلب ، ولكونه ضرورياً
 جداً مثل النور والهواء فإنه يعتبر ببساطة أمراً مسلماً به . في الواقع
 كثيراً ما يتململ الأطفال بعصبية لتحرير أنفسهم من شرك عناية المرأة

المفرطة . لكن أي مخلوق يحرم منها في وقتها الحقيقي هو متسول بحق . كان هذا مأزقي بعدما نشأت في جناح الخدم . لذا حين غمرت فجأة بالحنان الأثوي الوافر ، لم يكن بميسوري عدم ملاحظة ذلك .

في الأيام المبكرة كانت المقصورات الداخلية بعيدة المنال ، فدرس أحلامي جناح الحريم الذي يبدو من الخارج سجنًا ، كان بالنسبة لي مقر كل الحريات . لم تكن هناك لا مدرسة ، ولا مدرّس ولم يبدُ لي أن أي إنسان يفعل ما لا يرغبه . كان لفراغها الانعزالي مسحة غامضة ، يلهو أو يفعل ما يهواه دون أن يقدم تقريراً عن أفعاله . يصدق ذلك بشكل خاص في حالة أختي الصغيرة التي كانت تشاركنا في دروس المدرس نيل كما ، لكن بدا إنها لا تكثرث إذا كان تحصيلها جيداً أو سيئاً . في الوقت الذي كنا نسرع فيه في تناول إفطارنا قبل العاشرة لنحضر أنفسنا للمدرسة ، كانت تسير وجديلتها مدلية خلفها بعدم اكتراث في البيت ، وبدلك تعذبنا إلى حد الدهول . ويوم جاءت العروس الجديدة إلى بيتنا مزدانة بقلادتها الذهبية ، ازداد غموض المقصورات الداخلية عمقاً . هي التي جاءت من الخارج وأصبحت منا ، مجهولة وملكننا ، جذبتني إليها بغرابة ورحت أحترق تشوقاً لصداقتها . لكن ما أن أجد وسيلة بالحيلة للاقترب منها حتى تقصيني أختي الصغيرة بخشونة قائلة « ماذا تريدون يا أولاد من هنا؟ هيا انصرفوا خارجاً » طعنتني الإهانة بالإضافة إلى خيبة الأمل في الصميم . عبر الأبواب الزجاجية يمكن اختطاف لمحات سريعة لكل

أنماط الألعاب الغربية وإبداعات الخزف الصيني والزجاج ، بهية في ألوانها وزخرفتها . لم نعتبر جديرين بالاعتبار حتى للمسها ، فكيف لنا باللعب فيها ، هذه الحاجيات التي بدت لنا نادرة ورائعة ، أضفت على المقصورات الداخلية فتنة زائدة .

هكذا بقيت على بعد مدى ذراع بالرفض المتكرر . العالم الخارجي غير متوفر لي وكذلك للأسف العالم الداخلي . القليل الذي رأيته منها ترك لدي انطباعاً مثل مجموعة من الصور الزيتية . مثلاً ، الساعة الآن العاشرة مساءً ، ودروسي مع اجور بابو قد انتهت . أدلف إلى الداخل لأوي للفراش . مصباح مضرب متأرجح معلق في البهو الفينيسي المجلجل الطويل الذي يقود من المقصورات الخارجية إلى الداخلية في آخره ، يصبح الممر سلعاً من أربع أو خمس درجات لا يصلها النور والتي منها أمر إلى القاعات المحيطة بفناء الطابق الداخلي الأول ، بصيص من نور القمر ينحدر من السماء الشرقية إلى الجزء الغربي لهذه الشرفات مخلفاً ما تبقى في الظلمة . في رقع النور هذه تجتمع الخادومات جلوساً على الأرض ، أرجلهن ممدودة وعلى أفخاذهن يلففن نفايات القطن لصنع فتيل مصباح ، ويتحدثن بصوت منخفض عن قراهن .

كثير من مثل هذه الصور مطبوعة في ذاكرتي ويتعذر محوها ، من الصور الأخرى وقت ما بعد العشاء الذي يبدأ بغسل أيدينا وأقدامنا على الشرفة قبل أن نضجع في المكان الفسيح على أسرتنا ؛ عندئذ تأتي إحدى المربيات ، كنكاري أو شانكاري ، وتجلس قرب رؤوسنا وتغني

لنا بصوت منخفض عذب قصة الأمير الذي ارتحل وارتحل في المستقعات المنزلة ، وعندما تصل إلى نهاية القصة يخيم الصمت على الحجرة . أحملق والحائط قبالي في الرقع البيضاء والسوداء التي سببها سقوط الجص هنا وهناك والظاهرة قليلاً في الضوء الخافت ، فاستحضر كثيراً من الصور الرائعة وأنا أسقط في بحر النوم . وأحياناً خلال الليل ، وأسمع وأنا نصف نائم نداءات الحارس العجوز سوار أب وهو يدور من شرفة إلى أخرى .

ثم جاء النظام الجديد ، من عالم الحلم الداخلي المعروف فقط في خيالاتي ، جاء كل الاعتراف الذي كنت أصبو إليه ، وأكثر من ذلك ، عندما تحقق فجأة من تراكم الأعمال غير المنجزة في موعدها ، ماكان يجب أن يحدث بشكل طبيعي يوماً بعد يوم ، ليس بوسعي القول إن رأسي لم يصب بالدوار .

كان المسافر الصغير مشبعاً مأخوذاً برحلاته ، وفي كل تكرار تصبح القصة أقل ارتباطاً لحد إنها ترفض مطابقة الحقائق تماماً . مثل واحسرتاه أي شيء آخر . تغدو القصة مبتذلة ويعاني مجد القاص من نفس العوارض ، لذا عليه أن يضيف إليها ألواناً جديدة كل مرة ليحافظ على نضارتها .

كنت بعد عودتي من التلال المتحدث الرئيسي في جلسات أبي في الهواء الطلق على سطح البيت ، في المساء . يصعب مقاومة إغراء أن يصبح المرء مشهوراً في عيون أمه ، حيث أن مثل هذه الشهرة سهلة

البلوغ . حين كنت في المدرسة النظامية ووجدت في بعض كتب القراءة أن الشمس أكبر من الأرض بمئات والآف المرات ، أخبرت أمي بذلك رأساً . يثبت ذلك أن بإمكان الشخص الذي يبدو صغيراً أن تكون له عظمة ما . كنت ألقى عليها نبذاً من الشعر المستعمل كأمثلة توضيحية في فصل علم العروض أو البلاغة من كتابنا لقواعد اللغة البنغالية . الآن صرت أسرد في جلساتها المسائية أبناء الفلك السارة التي جمعتها من بروكتور .

انتسب تابع أبي كيشوري مرة إلى فريق من رواة أغاني داشارائي المقفاة للملاحم . قال لي مراراً ونحن في التلال معاً «آه يا أخني الصغير ، لو كنت في فريقنا لقدمنا عرضاً رائعاً» . يمكن لهذا أن يفتح أمامي صورة مغرية للترحال من مكان إلى آخر كصبي مغن في فرقة كوميدية ، ألقى وأشدو بالأشعار ، تعلمت كثيراً من مدخوره الغنائي واللحني أكثر من حديثي عن سطح الشمس النير أو أقمار زحل العديدة . غير أن أعظم إنجازاتي في نظر أمي أنني كنت أقرأ مع أبي «مهارشيفالميكى» بلغته الأصلية وبالوزن السنسكريتي وكل شيء ، في الوقت الذي كان باقي نزلاء المقصورات الداخلية قانعين بترجمة كريتيافاس البنغالية لرامايانا . «اقرأ لي قليلاً من هذه الرامايانا ، اقرأ» قالت لي . أشعر بفرفة غامرة حين أذكر ذلك الآن .

كانت قراءتي لفالميكى محصورة ، واحسرتها ، على المختارات القصيرة من «رامايانا» الموجودة في كتاب قراءتي السنسكريتي ، وحتى

ذلك لم أتقنه تماماً . علاوة على ذلك ، عندما أعيد النظر في ذلك ، أجد أن الذاكرة خدعتني وأن كثيراً مما حسبت أنني أعرفه أصبح ضبابياً ، لكنني كنت أفترق إلى الشجاعة لأقول لأمي المتلهفة المنتظرة عرض مواهب ابنتها العظيمة « لقد نسيت » ، لذا كان مفهوم فالميكي وتفسيره مختلفين جداً . لا بد وأن ذاك الحكيم رقيق الفؤاد غفر من مقعده في السماء لتهور وطيش صبي يطمح لفخر واستحسان امه ، لكن الله لن يغفر له .

أرادت أُمِّي التي لم تملك السيطرة على عواطفها حيال مآثري غير العادية أن يشاركها الجميع في إعجابها ، « عليك أن تقرأ هذا على دويجيندرا » قالت . شعرت في سريري وأنا أقدم كل الأعذار التي يمكنني التفكير بها أنني وقعت في مأزق ، لكن أُمِّي لم تقتنع بأي منها . أرسلت في طلب أخي الأكبر وما أن وصل حتى رَحبت به بقولها « أسمع رابي يقرأ رامينا » فالميكي ، بأي روعة يفعل ذلك . لم يكن مفر من القراءة ! لكن إله الكبرياء ترفق وخلصني بنفحة من قدرته . كان أخي مشغول البال ، لذا لم يبدِ أي حماس لسماعي تقديم السنسكريتية باللغة البنغالية . ما أن قرأت بضعة قصائد ، حتى علق ببساطة : « جيد جداً » وخرج .

وجدت صعوبة في الاستمرار في حياتي المدرسية وأنا أتابع ترقيتي إلى المقصورات الداخلية . التجأت إلى كل الدرائع للهروب من الأكاديمية البنغالية ، بعد ذلك حاولوا وضعي في سانت اكرافيرا ، إلا

أن النتيجة لم تكن أفضل . بعد بضعة محاولات متقطعة فقد إخوتي الكبار كل رجاء بي ، وتوقفوا حتى عن تأنيبي ، قالت أختي الكبيرة مرة «كنا جميعاً نأمل أن يصبح رابي رجلاً ، لكنه صار أكبر خيبة لنا» . خالجنني شعور بأن تقديري للعالم الاجتماعي يتناقض ولا ريب ، ومع ذلك لم أقدر على إلزام عقلي بكدح المدرسة الأبدي المنفصم تماماً عن الحياة والجمال والذي يبدو مزيجاً شائناً قاسياً من السجن والمستشفى .

لا تزال إحدى ذكريات سانت اكزفيرا ناصعة قوية في ذهني وهي تخص المدرسين ، ليس لأنهم جميعاً ممتازين . ليس بوسعي أن أميز ، من بين من درسونا ، تواضعاً أو تفانياً خاصاً . لم يكونوا كفريق بأفضل من آلة التعليم لمعلمي المدارس . حين تعمل وحيدة فإن آلة التعليم قوية لا ترحم . لكن عندما تقترب الأنماط الخارجية للدين بها مثل حجر الرحي ، يُسحق قلب الفتى فتاتاً ، كان حجر الرحي الذي عندنا في سانت اكزفيرا من هذه النوعية . مع ذلك ، كما أسلفت ، أملك ذكرى ترفع من انطباعي عن المدرسين هناك إلى مستوى مثالي .

لم يكن للأب دو بينير اندا صلة كبيرة بنا . إذا ذكرت جيداً ، كان بديلاً مؤقتاً لأحد مدرسي فصلنا . كان أسبانياً ويبدو أن عنده عائقاً في لسانه حين يتكلم الإنجليزية . لعل هذا يفسر قلة انتباه الطلاب لما يقول . شعرت أن هذا يؤله ، لكنه تحمله يوماً إثر يوم بسعة صدر . لا أدري لماذا؟ غير أن قلبي مال إليه . لم تكن قسماته جميلة ، لكن

لوجهه قابلية غريبة . كلما نظرت إليه كانت روحه تبدو وكأنها في صلاة ، ويعمه سلام عميق من الداخل والخارج .

كان عندنا نصف ساعة للنسخ في دفتر الخط ، ذاك هو الوقت الذي يشرد فيه ذهني وقلمي في يدي وتسرح أفكاري هنا وهناك . في أحد الأيام كان الأب دوينبير اندا مسؤولاً عن هذا الدرس . كان يروح جيئة وذهاباً خلف مقاعدنا ، ولا بد أنه لاحظ أكثر من مرة أن القلم في يدي لا يتحرك . على حين غرة وقف خلف مقعدي ومال نحوي بلطف واضعاً يديه على كتفي وسألني برفق «ألسنت على مايرام ياطاغور؟» . كان مجرد سؤال بسيط ، لكنه سؤال لن أنساه أبداً .

لا أملك الكلام نيابة عن الآخرين ، لكنني أحسست فيه حضور روح عظيمة ، وحتى اليوم يبدو أن استعادة ذكره تنقلني إلى العزلة الصامتة ولعبد الله .

كان هناك قسيس آخر يحبه جميع الطلاب اسمه الأب هنري ، يدرس الفصول العليا ، لذا لم أعرفه جيداً ، لكنني أذكر شيئاً عنه . كان يتقن البنغالية . سأل مرة نيرادا* ، طالباً في فصله ، عن أصل اشتقاق اسمه .

لم يكن نيرادا المسكين ، الواصل من نفسه ، مهيباً بأي شكل للإجابة على هذا السؤال لأنه لم يفكر إطلاقاً في اشتقاق اسمه . مع ذلك أن

* نيرادا : في السنسكريتية تعني غيمة . وهي كلمة مركبة من نيرا=الماء ودا= المعطي ، الواهب ، في البنغالية تلفظ نيرود

يهزم الإنسان من قبل اسمه ، والقاموس مليء بالمفردات العويصة غير
المعروفة ، لأمر مخيف ، كأن يدهس الإنسان بعريته ، لذا أجاب نيرادا
دون خجل « نبي تعني سبب الحرمان ، رود تعني أشعة الشمس ،
وعليه فإن نيرود تعني الذي يتسببُ في مغيب أشعة الشمس » .

دروس البيت

أصبح جيان بابو ، ابن البانديت فيدانتا فاجيش ، الآن مدرسنا في البيت ، عندما وجد أنه لا يستطيع شد انتباهي إلى الدروس المدرسية ، تخلى عن المحاولة اليائسة وسلك سلوكاً مختلفاً . رحنا ندرس «مولد إله الحرب» لكاليدياس وهو يترجمها لي . قرأ لي «مكبث» أيضاً ، يشرح النص أولاً بالبنغالية ثم ييقيني في حجرة الدراسة لأقوم بترجمة ماقرأناه في ذلك اليوم إلى شعر بنغالي . وهكذا جعلني أترجم كل المسرحية . من حسن طالعي أنني فقدت تلك الترجمة وبذلك تخلصت من عبء كرماتي .*

كانت وظيفة البانديت رامسار فاسوا هي مراقبة تقدمنا في السنسكريتية . تخلى هو أيضاً عن مهمته الفاشلة في تعليم قواعد اللغة لطالب غير راغب فيها ، وعوض ذلك قرأ معي ساكونتالا . في أحد الأيام أقنعني أن أعرض ترجمتي لمكتب على البانديت فيديا ساجار

* الكرماء : العقوبة الأخلاقية لأعمال المرء التي تقرر قدره في الاعتقاد البوذي في طور تناسخي تال (المترجم)

وأخذني معه إلى بيته . كان راج كريشنا موكهيرجي في زيارته ويجلس معه . كان قلبي يخفق عندما دخلت حجرة دراسة المعلم العظيم المليئة بالكتب ولم يساعد محياه البسيط في استعادة شجاعتي ، مع ذلك وحيث أن هذه هي المرة الأولى التي أقف فيها أمام مستمعين مميزين ، فإن رغبتني في كسب الشهرة كانت قوية . أعتقد أنني عدت إلى البيت راضياً . دلل راج كريشنا عن رضاه بنصحي أن ألزم الحذر بالحفاظ على لغة ووزن أجزاء الساحرات مختلفاً عن الشخصيات الإنسانية .

في أيام صباي المبكر ، كان رصيد الأدب البنغالي ضئيلاً ، وأظن أنني قرأت كل الكتب الموجودة فيه المقرورة وغير المقرورة . لم يكن الأدب الخاص بالأحداث قد تطور ، غير أنني متأكد أن هذا لم يسبب لي أي أذى .

المادة الهزيلة التي تقدم للصغار هي نوع من الرحيق الأدبي الخفيف الذي يعتبرهم أطفالاً ، ولا يتضمن أي منها إمكانية البلوغ يوماً . على كتب الأطفال أن تكون مفهومة جزئياً من الأطفال وجزئياً غير مفهومة .

قرأت في طفولتي كل كتاب وقع تحت يدي من الغلاف إلى الغلاف ، وكان لكل ما فهمته أو لم أفهمه نتيجة جيدة . هكذا يتفاعل العالم مع وعي الطفل الذي يجعل ما يفهمه ملكه ويأخذه ما هو أعلى من مستواه خطوة إلى الأمام .

عندما نشرت هجائيات دنيايا نبدو متيرا ، لم أكن قد بلغت السن

الذي تناسبه . كانت إحدى قريباتنا تقرأها ولم تقنعها أي من توسلاتي بإعارتي الكتاب . كانت تحفظ الكتاب بقفل ومفتاح وجعلتني استحالة الوصول إليه أريده أكثر . لقد قررت توجب قراءة الكتاب .

كانت في عصر أحد الأيام تلعب الورق ومفتاحها معلق في طرف ساريها المدلى من على كتفها . لم أعر لعب الورق الانتباه يوماً ، في الواقع لا أستطيع تحمل لعب الورق . بيد أن سلوكي في ذلك اليوم لم يعزز هذا الشعور ، لذا انهمكت تماماً في لعبتهم . أخيراً أوشك طرف على تحقيق الفوز ، وفي جو الإثارة اغتنمت فرصتي ورحت أحل العقدة التي بها المفتاح بسرعة . لم أكن ماهراً فقبض عليّ . رفعت صاحبة الساري والمفاتيح مبتسمة الطيبة عن كتفها وألقت بالمفاتيح في حجرها واسترسلت في اللعب .

من ثم عثرت على خدعة . كانت قريبتني مغرمة بالبان ، فأسرعت بوضع شيئاً منه أمامها . حين نهضت للتخلص من البان المضبوط انتقلت مفاتيحها من حجرها إلى كتفها ، في تلك اللحظة سُرقت ، المتهم فر بعيداً ، والكتاب قرأ ! حاولت صاحبة الكتاب زجري ، إلا أن المحاولة فشلت وضحك كلانا .

كان الدكتور راجيندرا لال ميترا يحرق مجموعة كتابات شهرية موضحة في موضوعات مختلفة ، يملك أخي الثالث منها مجلداً سنوياً في مكتبته ، وقدر لي الحصول عليه . لازلت أسترجع متعة قراءته مراراً وتكراراً . قضيت فيلولات عطل عديدة مضجعاً على

فراشي وهذا المجلد المربع جاثم على صدري أقرأ عن كركدن البحر أو غرائب العدالة التي قضى بها كبار كازيز أو قصة كرشنا كوماري الرومانسية .

لم لا تملك مثل هذه المجلات اليوم ؟ !

عندنا مقالات فلسفية وعلمية من جهة وقصص وأشعار ورحلات خالية من التشويق والمتعة من جهة أخرى ، لكننا نفتقر إلى المجلات المتنوعة غير المدعية التي بإمكان الإنسان العادي قراءتها براحة مثل شامبرز أو كاسيل أو ستراند في الإنجليزية ، والتي تقدم قسطاً بسيطاً مرضياً من المتعة العظيمة لأكبر عدد ممكن .

صادفت في صباي دورية صغيرة أخرى تدعى «أبودها بابدهو» -رفيقة الإنسان العادي- . التهمت مجموعة من أعدادها الشهرية وجدتها في مكتبة أخي الكبير يوماً بعد يوم ، وأنا جالس على عتبة مكتبه وقبلتي جزء ضئيل من السطح الجنوبي . في صفحات هذه المجلة تعرفت أول مرة على شعر بيهاري لال شاكارافارتي الذي راقت لي قصائده أكثر من أية قصائد أخرى قرأتها حين ذاك . أيقظت الحان قصائده الغنائية البسيطة في نفسي موسيقى الحقول وقرج الغابات .

على نفس هذه الصفحات أهدرت دموعاً حارة على ترجمة «بول وفيرجيني» الحزينة . على شاطئ ذاك البحر الرائع يلعب النسيم بغابات جوز الهند التي تقيع خلفها منحدرات تفعمها بالحياة أمعز الجبال التي تطفر مرحاً ، أي سراب منعش لأيد تستحضر القصة لي

على ذاك السطح في كلكتا . أجل ! الحب الذي أزهر في شعاب غابة تلك الجزيرة المنعزلة بين الصبي البنغالي القاريء و فيرجيني الصغيرة التي تغطي رأسها بوشاح متعدد الألوان !

من ثم جاءت «مرآة البنغال» لبانكيم لتأخذ بشغاف القلب البنغالي . كان انتظار صدور العدد القادم شهراً أمراً سيئاً ، غير أن انتظار الكبار ليفرغوا من قراءتها أمراً لا يحتمل ! اليوم يمكن لأي شخص إذا أراد أن يلتهم كل شاندر شيكهارة أو يشابريكشا بلقمة واحدة . إلا أن عملية التشوف والتوقع شهراً تلو شهر ، وتمديد المتعة المركزة لكل فرد قراءة قصيرة لفترات فاصلة طويلة ، والتفكير ملياً في كل حلقة مرات ومرات وأنت في انتظار وترقب الحلقة التالية ، مزيج الرغبة الملحة والرضا ، وحرقة الفضول وإشباعها : هذه المسرات المطولة لن يتذوقها أحد ثانية .

أثار اهتمامي أيضاً ، جمع وتصنيف سارادا ميتير واكشاي ساكار لقصائد الشعراء القدامى . كان من يكبرونا من أفراد العائلة مشتركين في هذه المحلات ، لكنهم لا يقرأونها بانتظام ، لذا لم يكن من العسير عليّ الحصول عليها . شدتني لغة فيدياباتني الميثيلية الغربية والمحرقة لعدم وضوحها . حاولت فهم مأربه دون مساعدة ملاحظات المصنف ، مدوناً في دفترتي كل الكلمات المبهمة كما وردت في سياق النص بعدد المرات التي ذكرت بها . كما دونت أيضاً كل مافهمته مما هو غير مألوف من القواعد اللغوية .

محيطي المنزلي

كان المناخ الفني الذي هيمن على بيتنا ميزة عظيمة استمتعت بها في صباي . أذكر كيف كنت أتكىء عندما كنت صغيراً على قضبان الشرفة المطلّة على المبنى المنفصل الذي يشمل غرف الاستقبال المضاءة كل مساء حيث تصطف العربات الفخمة تحت رواق مدخل المبنى والزوار يدلّفون ويخرجون في حركة دؤوبة . لم اكتشف ما كان يجري ، غير أنني كنت أحملق في صفوف النوافذ المضاءة من مكاني في الظلمة . لم تكن المسافة التي تفصلني جسدياً عنهم بعيدة ، بيد أن الهوة الفكرية بينهم وبين عالمي الطفولي كانت شاسعة .

كتب ابن عمي جانيندرا ، الذي يكبرني ، مسرحية عرضت في البيت تحت إشراف البانديت كاركاتانا . كان حماسه للأدب والفنون الجميلة لا يعرف حدوداً ، كما لو أنه وفرقه يناضلون لأحداث نهضة كالتي نراها اليوم في كل مجال . لقد استيقظ فيه ومن حوله شعور قومي جلي في اللباس والأدب والموسيقى والفن والمسرح . كان طالباً متوقد الذكاء في تاريخ بلدان عدة ، وشرع في تدوين عمل تاريخي بالبنغالية

لم يستطع إكماله . ترجم ونشر المسرحية السنسكريتية «فيكرامور فاسي» وألف العديد من التراتيل المعروفة . يمكن القول إنه شق لنا الطريق لكتابة القصائد والأغاني الوطنية . كان ذلك حين كانت احتفالات «هندو ميلا» تقليداً سنوياً . كانت أغنيته تقول «هل أنا خجل لأغني أمجاد الهند» .

كنت لا أزال طفلاً عندما توفي ابن عمي جانيندرا في ريعان الشباب . يستحيل على من عرفوه نسيان محياه الوسيم وبنيته الطويلة الجلييلة . كان له تأثير لا يقاوم على الآخرين ، وفي ميسوره جذب الرجال إليه وإبقاؤهم مرتبطين به ، وحين يكونون في حضرته يضحى الارتباط غير قابل للكسر . كان نمطاً مميزاً في بلدنا يوطد نفسه يسر بفضل سحره الشخصي في قلب عائلته وقريته . في بلدان أخرى ، حين تؤسس الجماعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المهمة ، يصبح مثل هؤلاء الناس قادة وطنيين . تحتاج المقدرة على تنظيم عدد غفير من الناس في جماعة إلى عبقرية من نوع خاص في بلدنا ، مثل هذه العبقرية تبدد هباءً مثوراً ، يبدو لي مثل قلع نجمة من القبة السماوية عوض إشعال عود كبريت .

لا زلت أذكر بشكل أفضل أخاه الأصغر ، ابن العم جونيندرا الذي أيضاً ملأ البيت بشخصيته ، ووسع قلبه الرؤوف الكبير الأقارب والأصدقاء والضيوف والعائلة على حد سواء أكان في شرفته الجنوبية الواسعة أو في المرجة الخضراء قرب النافورة ، أو على حافة الحوض في

منصة صيد السمك ، كان الناس يلتفون حوله لينعموا بحضوره الشبيه بخير مجسد . أبقاه تقديره العظيم للفن والموهبة مشعاً بالحماس المتقد . كانت الأفكار الجديدة للمهرجانات وحفلات السمر والعروض المسرحية أو أي تسليات أخرى ، تجد نصيراً جاهزاً وتنجح بمساعدته وتؤتي ثمارها وأهدافها .

كنا أصغر من أن نشارك في هذه الفعاليات ، لكن أمواج المرح والحنين التي بعثتها قدمت وطرقت أبواب فضولنا . أذكر كيف تمّ التدريب على عرض ساخر ألفه أخي الأكبر في قاعة استقبال ابن عمي الكبيرة . كان بميسورنا من موقعنا خلف قضبان شرفة بيتنا ، سماع قهقهات الضحك ممزوجة بأصوات الأغاني الفكاهية القادمة عبر النوافذ المفتوحة قبالتنا ، وبين فينة وأخرى نلمح أيضاً تصرفات أتشاي مازودار الغريبة غير العادية . لم نقدر على فهم الأغاني تماماً ، غير أننا عشنا على أمل أن نجد ذلك يوماً .

أذكر كيف أكسبني ظرف تافه اعتباراً خاصاً عند ابن عمي جونيendra . لم أحصل على أي جائزة من المدرسة بتاتاً سوى مرة على حسن السلوك . بين ثلاثتنا ، كان ابن أخي ساتيا ، أفضلنا في تحصيله . حصل مرة على تقدير جيد في امتحان ما ، منح على أثره جائزة . قفزت من العربة عندما عدنا إلى البيت لأزف الخبر العظيم لمسامع عمي الذي كان في الحديقة «حصل ساتيا على جائزة» صحت وأنا أركض نحوه . شدّني إلى ركبته مبتسماً وسأل «وانت ، هل حصلت على جائزة؟» .

«كلا» قلت ليس لي بل لساتيا» .

لمست غبطتي لنجاح ساتيا قلب عمي . التفت إلى أصدقائه وعلق :
إن هذه صفة جديرة بالإكبار . أذكر الحيرة التي شعرت بها ، لأنني لم
أفكر بمشاعري من هذا المنظار . لم تُجد جائزة عدم حصولي على
جائزة نفعاً . لا ضرر من تقديم الهدايا للأطفال ، لكن لا يتوجب أن
يكافأوا . من غير السليم جعل الأطفال يعون ذلك .

كان ابن عمي جونيندرا يذهب بعد الغداء إلى مكاتب العقار في جزء
من البيت ، حيث كان مكتب الكبار نوعاً من النادي الذي تمتاز فيه
الضحكات والمحدثات بحرية مع أمور التجارة . كان ابن عمي يستلقي
على أريكة ، فنغتنم فرصة لأتقدم منه رويداً رويداً .

كان يروي لي قصصاً من التاريخ الهندي . لازلت أذكر دهشتي عند
سماع قطع كلايف لرقبته حين عاد إلى بلاده بعد أن أرسى الحكم
البريطاني في الهند ! هنا يُصنع تاريخ حديث بيد وبالأخرى يخفى
فصل مأساوي بعيداً في ظلمات القلب الإنساني . كيف يمكن أن
يوجد مثل هذا النجاح الباهر في الظاهر وذاك الفشل اليائس في
الداخل؟ أثقل ذلك فكري طوال اليوم .

أحياناً لم أكن أسمح لابن العم جونيندرا أن يبقى في ربة لما في جيبي
من المحتويات . بأقل بادرة تشجيع أخرج دفترتي دون خجل لست
بحاجة للإقرار أن ابن عمي ليس ناقدًا صارماً . في الواقع يمكن للأكرام
التي عبر عنها أن تكون دعاية عظيمة . مع ذلك حين تصبح صبيانياتي

جلية الوضوح ، لم يكن ليكتفم «ها ،ها» نابعة من القلب .

في أحد الأيام ، كانت قصيدة عن «الهند الأم» وحيث أن القافية الوحيدة التي كان بميسوري التفكير فيها تعني «عربة» لذا توجب عليّ أن أجزّ عربة رغم عدم وجود أثر لطريق يمكن للعربة الوصول عبره بمعقولية . لم تُصنَّ القافية لأيّ أعذار لا داعٍ لها . قوبلت تلك العربة بنوبة من الضحك من قبل ابن عمي جونيندرا ، وأعادها من نفس الطريق المستحيلة التي جاءت منها ، ولم يسمع بها بعد ذلك .

في تلك الغضون كان أخي الأكبر منهمكاً في تحفته «رحلة الحلم» . مقعده من الوسائد في الشرفة الجنوبية وأمامه منضدة منخفضة . كان ابن العم جونيندرا يأتي ويجلس هناك كل صباح لبعض الوقت . ساعدت مقدورته العظيمة على المرح الشعر على التفتح مثل نسائم الربيع . كان أخي الكبير يكتب ويقرأ ماكتبه بصوت مرتفع بالتعاقب ، وتهز ضحكته الصاخبة على بنات أفكاره الشرفة . كتب كمية أكبر بكثير مما استعمله من عمله المنتهي . كان إلهامه في منتهى الخصوبة وتنتشر في كل أرجاء البيت مثل الزهرات الصغيرة التي توسد أقدام بساتين المانجو في الربيع ، الصفحات المرفوضة من «رحلة الحلم» ، لو أن شخصاً حفظها للمئات سلة بالبراعم التي تزين أدب اليوم .

باستراق السمع من خلف الأبواب ، وسرقة النظرات حول الزوايا ، كنا نحصل على حصتنا الكاملة من هذا الاحتفال . كان أخي الأكبر في عز قوته ومن قلمه تمجيش موجة إثر أخرى غير متعبة ، سيل عارم

من الأحلام الشعرية والقوافي والتعابير ، تملأ وتطفو على ضفافه
أنشودة النصر والحمد والتسبيح المنعمة بالحياة . هل حقاً فهمنا «رحلة
الحلم»؟ لكن هل نحن بحاجة لفهمها تماماً حتى نستمتع بها؟ ربما لا
نبلى كنوز أعماق المحيطات . وما الذي سنفعله بها إن بلغناها؟ غير أننا
نجد متعة بالغة في الأمواج المتكسرة على الشاطئ ، بأي غبطة يسري
دم الحياة في علوه وانخفاضه في كل العروق والشرائين !!

كلما أمعن التفكير في تلك الحقبة أكثر ، كلما أدرك أننا لم نعد نملك
الشيء الذي يسمى «المجلس» . شاهدنا يوم كنا صبية موت شعاع
حميمية الاختلاط الاجتماعي الذي ميز الجيل الأخير . كانت روابط
الجيلية آتلة في غاية التلاحم لحد جعل المجلس ضرورة والذين بإمكانهم
المساهمة فيه مطلوبين جداً . في أيامنا يتزاور الناس للعمل أو كواجب
اجتماعي ، وليس للاجتماع كما في المجلس . لا يملكون الوقت ولا
العلاقات الحميمة ! كنا نرى من يأتي ويغدو ؛ كم كانت الحجر
والشرفات مرحلة بهمهمات الأحاديث ونفث الضحكات ! لقد اختفت
قدرة أسلافنا على جعل أنفسهم قلب الجماعات والتجمعات ، وبدء
وحفظ الشائعات المسلية الحية . لا يزال الرجال يأتون ويذهبون ، لكن
هذه الغرف والشرفات تبدو فارغة مهجورة . في تلك الأيام كان كل
شيء ، من الأثاث إلى الاحتفالات ، مصمماً ليمتع الكثيرين ؛ ومهما
كانت الأبهة أو العظمة ، إلا إنها ليست غطوسة . منذ ذلك الحين أصبح
كل شيء أعظم ، غير أن المضيفين صاروا بلا مشاعر ، وفقدوا فن

الدعوة غير المميزة . لم يعد فقير الملبس أو حتى حافي القدمين يملك الحق في الظهور دون إذن من وجوههم المبسمة وعلى حسابها فقط . للذين ندعوهم اليوم إلى بيوتنا مجتمعهم الخاص وأسلوب ضيافتهم المميز . مأزقنا ، كما أراه ، أننا فقدنا ما كان بحوزتنا ، ونفتقر إلى الوسائل لبناء جديد وفق التقاليد الأوروبية ، وكانت نتيجة ذلك أن غدت حياتنا المنزلية عديمة الفرح .

لا نزال نتقابل للعمل أو من أجل السياسة ، لكن ليس بتأتا من أجل متعة اللقاء ، ودون غاية سوى الرفقة الجيدة . هذا اختفى تماماً . باستطاعتي تصور بضعة أشياء أكثر بشاعة من الشح الاجتماعي . حين أنظر إلى الخلف وأستعيد رؤية هؤلاء الذين كانت رنين ضحكاتهم النابعة من قلوبهم مباشرة تخفف عبء أحمال هموم دنيانا ، يبدو أنهم مثل زوار من أراض أخرى .

رفاق الأدب

توفر لي يوم كنت صبياً صديقاً لا تثمن معونته الأدبية بضمن . كان شودهوري زميل أخى الخامس في المدرسة وحاصلاً على ماجستير في الأدب الإنجليزي الذي لا يضارع حبه له عظمة سوى جدارته به . من جهة أخرى كان عشقه للكتاب البنغاليين القدماء وشعراء الفيشافنا مشابهاً . كان على معرفة بمئات الأغاني البنغالية لكتاب مجهولين ، يشدوها بصوت جهوري دون اعتبار للحن أو عاقبة أو استهجان سامعيه الجلي . ولم يفلح شيء في منعه من قياس وقت موسيقاه بصخب بحركات يديه ، طارفاً أقرب منضدة أو كتاب بأنامله الرشيقة في إيقاع قوي يساعد في بعث الحياة والحيوية في مشاهديه .

كان يتحلى أيضاً بمقدرة جامحة لبعث المرح في الجميع قاطبة بلا استثناء ، ومتحفزاً لاستيعاب كل طيبة كما هو سخي في التغمي بإطراء فضائلها . كانت له موهبة استثنائية كملحن للأغاني والألحان السريعة غير الرديئة ، لم تبعث فيه كبرياء شخصياً . لم يأبه بمستقبل أكوام الورق المنتشر الذي خط عليها قلمه بمجلة . كان لامبالياً لقدراته بنفس

القدر الذي كانت فيه قدراته خصوية مشرة .

أثارت إحدى قطعه الشعرية الطويلة إعجاباً كبيراً حين ظهرت في
بانجدارشان . سمعت أغانيه على شفاه الكثيرين الذين لم يعرفوا شيئاً
عن كاتبها .

أيقظت القدرة الاستثنائية لأكشاي بابو القائلة إن المتعة الأصلية في
الأدب أندر من المعرفة المكتسبة من الكتب ، عندي تقديري للأدب .

كان متسامحاً متحرراً في صداقته كما هو في النقد الأدبي . بين
الغرباء كان مثل سمكة خارج الماء لكن بين الأصدقاء لم يكثر لتباين
الأعمار والمعرفة ، معنا نحن الصبية كان صبيّاً . حين يستأذن من الكبار
لترك المجلس في آخر المساء ، كنت أمسك به من تلايبيه وأشدّه إلى
حجرة دراستنا حيث يجلس خلف طاولة الدراسة بكرم عبقريته الوافر
ليملأ تجمعنا الصغير بالحياة . كثيراً ما استمعت إلى خطبه الجذلة عن
بعض القصائد الإنجليزية وجذبه إلى نقاش تقويمي واستفسار نقدي أو
خلاف حاد ساخن ، أو أقرأ له بعضاً من كتاباتي التي يكافئني عليها
بمدح سخي .

كان أخي الخامس جيوتيرني دار أحد المساهمين الرئيسيين في إعدادي
الأدبي والعاطفي . كان يهوى إثارة الحماس في الآخرين كونه متحمساً
بذاته . لم يسمح لاختلاف الأعمار أن يكون عقبة بيننا . وما كان لأحد
أن يجروء على منحي نعمة الحرية العظيمة التي وفرها لي والتي سببت
له النقد من الكثيرين . مكنتني رفقته من هز أركان حساسيتي

الانطوائية . كان ذلك ضرورياً لروحي بعد قمعها الصارم ، مثل أهمية الرياح الموسمية بعد صيف ملتهب .

لو أطبقت هذه القيود فكها حولي لغدوت مقعداً مدى الحياة . لا يكل من في السلطة عن قولهم إن إمكانيات مساويء الحرية تبرر جمعها . غير أنهم لا يعلمون أنه دون هذه المخاطرة لا تكون الحرية حقاً حرة . السبيل الوحيد لتعلم كيفية استعمال شيء بشكل صحيح هي في إساءة استعماله . وفق رأيي على الأقل ، أستطيع القول بصدق إن المصائب الصغيرة التي نتجت عن ممارستي لحررتي قادت دائماً إلى سبل شفائها . لم ألحج بتاتاً في الحصول على أي شيء حاول الآخرون إجباري على تشريه قسراً ، جسدياً كان ذلك أم ذهنياً ، بشد أذني . لم يشمر ذلك إلا للأسى ، باستثناء الوقت الذي أترك فيه حراً .

تركتني أخي جوتيريندرا طليقاً في حقول المعرفة مهما كانت المحصلة لأقدم الزهور أو الأشواك كما تملي قدراتي . جعلتني هذه التجربة لا أخشى الشر نفسه بقدر المحاولات الإستبدادية لخلق الصلاح . يتأبني رعب ميرر من الشرطة التأديبية ، سياسية كانت أم أخلاقية . دولة الرق التي يحثون عليها هي أسوأ نوع سرطان تتعرض له الإنسانية .

كان أخي أحياناً يقضي الأيام مستغرقاً في تأليف الحان جديدة على البيانو ودق الأنغام يسيل من أنامله ، في حين أجلس وزكشاي بابو على جانبيه نستوحي من اللحن ما يناسبه من الكلمات لنساعد على حفظها في ذاكرتنا ، بهذه الطريقة خدمت تدريبي في تأليف الأغاني .

كنا نولي الموسيقى الرعاية في عائلتنا منذ نعومة أظافرنا . ساعد ذلك في تشريي للموسيقى دون جهد . بيد أن لذلك نقطة نقص وهي عدم حصولي على السيطرة التقنية التي يوفرها التعليم خطوة خطوة . وعليه لم أحصل بثباتاً على ما يمكن أن يسمى بالبراعة الموسيقية .

بعد عودتي من الهملايا ، أصبحت أتمتع بمزيد من الحرية . انتهى حكم الخدم ، حللت بثان قيود مدرستي ولم أعر مدرسي في البيت اهتماماً كبيراً . بعد أن درسنا «مولد إله الحب» وكتاباً أو كتابين خارج المنهج ، ذهب جيان بابو ليعمل في مهنة قانونية . ثم جاء براجابابو . طلب مني في اليوم الأول ترجمة «قس ويكفيل» . لم أكره الكتاب ، لكن حين شجعه ذلك على وضع ترتيبات مفصلة لتعليمي ، أبعدني عن طريقه .

كما أسلفت ، ينس إخوتي الكبار مني وخاب رجاؤهم بي ، ولم نكثرث ، لاهم ولا أنا ، بمستقبلي . لذا شعرت بالحرية لتكريس نفسي للملء دفترتي بكتابات ليست أفضل مما هو متوقع . لم يكن في ذهني سوى الأوهام البخارية الحارة ، والبخار المليء بالفقاعات يزد ويحوم حول دوامة من الوهم الخامل دون غاية أو معنى . لم تتطور أشكال ، بل حركة مثارة هائجة فقط ، تكوّر فقاعات يتبعها انفجار يحولها إلى زيد . لم يكن الجوهر القليل المتواجد فيها لي ، بل استعارات من الشعراء الآخرين . ما كان لي هو التوتر المضطرب لعدم الارتياح . حين تولد الحركة ، مع توجب خلق توازن للقوى ، تحل الفوضى العارمة لا

محالة .

كانت زوجة أخي عاشقة للأدب . لم تقرأ لقتل الوقت مثل الآخرين بل لتشيع ملكات عقلها . كنا شريكين في مشروع أدبي ، إعجابنا بكتاب أخي «رحلة الحلم» ، أنا على وجه الخصوص بسبب نشأتي في جو خلقه ولكون جمالياته مجدولة بكل خيوط قلبي . من سوء الطالع ، بقي الكتاب فوق مقدرتي على تقليده ، لذا لم تخطر الفكرة لي .

يمكن تشبيه «رحلة الحلم» بقصر فخم من المجازات مكون من عدد لا يحصى من القاعات والغرف والممرات والزوايا والنوافذ المليئة بالتماثيل والصور الرائعة التصميم والحرفية ؛ وحول الطابق الأرضي توجد الحدائق والبساتين المعرشة والجبال والأركان المظلمة الوافرة . ولا تعج بالأفكار والخيالات الشاعرية فقط ، بل بغنى وتنوع اللغة والتعبير الرائعة أيضاً . هذه القوة الخلاقة التي تهب الوجود بنياناً عظيماً كامل التفاصيل الفنية ، ليست شيئاً صغيراً . لعل هذا يفسر سبب عدم تفكيري بالتقليد .

في ذلك الحين ، كانت سلسلة أغاني بهاري لال شاكرافارتي المدعوة «ساراو مانجل» تظهر في أريادارشان . افتتنت زوجة أخي بطلاوة هذه الأغاني وحفظت معظمها عن ظهر قلب . كثيراً ما كانت تدعو الشاعر إلى منزلنا وتطرز وسادة يديها ليجلس عليها . وفر هذا لي الفرصة لأتعرف عليه كصديق كنّ لي عواطف جمّة ، وصرت أزور بيته

صباحاً ومساءً . كان قلبه كبيراً كجسده ، وتحيط به هالة من الخيال كجسد شاعر وهمي ، الذي لعله كان تجسده الحقيقي . كان يفيض بالغبطة الفنية التي تشرب منها قليلاً كلما كنت معه . كثيراً ما جثت إليه في غرفته الصغيرة في الطابق الثالث وهو ممدد في قبض الظهيرة على الأرضية الأسمنتية المصقولة الباردة ، يكتب أشعاره ، ورغم كوني مجرد صبي ، إلا أن ترحيبه كان دائماً صادقاً نابعاً من القلب ، ولم أشعر بأي عدم لياقة في زيارته . ثم يقرأ لي ، وهو سابع في إلهامه غافل عن كل ما حوله ، قصائده أو يشدو بأغانيه . لم يتحلّ بمهوبة صوتية عظيمة في الغناء ، إلا أن تألف الأنغام يوهل المستمع لتكوين فكرة جيدة عن اللحن ، وحين يرفع صوته الغني العميق وعينه مقفلتان ، تعوض تعابير ما افتقر إليه أداؤه . يخيل لي أنني لا أزال أسمع بعضاً من أغانيه وهو يغنيها . كنت أوفق أحياناً بين كلماته والموسيقى وأغنيها له .

كان شديد الإعجاب بكل من فامليكي وكاليداس . أذكر كيف بعد إلقاء وصف الهملايا من كاليداس ، صاح بكل ما أوتي من صوت «تعاقب صوت حرف (أ) الطويل هنا ليس مصادفة . لقد كرر الشاعر هذا الصوت متعمداً من ديفاناتما إلى ناجاد هيراجا كأداة مساعدة لإظهار الامتداد العظيم للهملايا» .

كان أقصى طموحي حين ذاك أن أصبح شاعراً مثل بيهاري بابو . وقد نجحت في إقناع نفسي بأنني فعلاً أكتب مثله ، لكن زوجة أخي المفتونة

والمتحمسة له ، وقفت في الطريق ، كانت تذكرني بمثل سنسكريتي
يقول الطموح التافه بالشهرة الشعرية يرحل ميتاً في الملاحظات
الساخرة . من الممكن إنها كانت تعلم إذا ما سمح لغروري مرة أن
يهيمن ، سيكون من الصعب لاحقاً السيطرة عليه . لذا لم تحظ لا
ملكاتي الشاعرية ولا قوة غنائي بأي إطراء منها ؛ على العكس تماماً ،
لم تدع فرصة تفوتها لمذح غناء شخص آخر على حسابي لحد اقتنعت
فيه تدريجياً بأن هناك خللاً في صوتي ، هاجمتني أيضاً هواجس الريبة
في قواي الشعرية ، لكن حيث أنه حقل النشاط الوحيد الذي بقي لي
فيه أمل للاحتفاظ باحترامي الذاتي ، لم أسمح لحكم شخص آخر أن
يحرمني من كل الآمال . علاوة على ذلك ، كان الحافز الداخلي عندي
مليحاً جداً لحد جعل وأد مغامرتي الشعرية أمراً مطلق الاستحالة .

النشر

حتى ذلك الحين ، كانت كتاباتي تقتصر على المحيط العائلي . ثم ظهرت الدورية الشهرية «جيانانكور» - بدور المعرفة- التي طبقت اسمها وتكفلت بجنين شاعر كأحد كتابها ، وشرعت في نشر كل هدياني دون تمييز . حتى يومنا هذا ، لازالت الخشية قابعة في ركن من فكري ، من أن يبدأ كشاف أدبي متحمس يوم الحساب بحثاً في أشد أجنحة حريم الأدب المفقود إيغالا ، متغافلاً ادعاءات الخصوصيات الشخصية ، ويعرض هذه القصائد على عيون الجمهور عديمة الرحمة . رأت أول كتاباتي الثرية النور على صفحات «جيانانكور» ، أيضاً كان ذلك مقالاً نقدياً يتضمن قليلاً من التاريخ .

نشر كتاب شعري يحمل اسم «عبقريّة بهو بانموهيني» . أحسن اكشاي بابو في «سادهاراني» ويهوديب بابو في «أديوكيشن جازيت» الثناء على الشاعر الجديد ، وأسرفوا في التعبير عن عواطفهم . أثنائي صديق أكبر سنّاً مني ، بدأت صداقته من ذلك اليوم ، وعرض عليّ رسائل تلقاها موقعة باسم بهوبانموهيني . كان من هؤلاء المأسورين

بالكتب ويبحث من حين لآخر بالعطايا السخية من الكتب والملابس إلى عنوان المؤلفة المشهورة .

كانت بعض هذه القصائد لا ترتقي إلى المستوى المتوقع فكرياً ولغة ، لحد لم أتحمل معه الظن أنها مكتوبة من قبل امرأة . جعلت الرسائل الاعتقاد بأن الكاتبة أنثى أقل احتمالاً ، ولم يززع إخلاص صديقي شكوكي ، لكنه رغم ذلك استمر في تأليه معبودته .

شرعت في نقد أعمال هذه الكاتبة ، تاركاً نفسي على سجيته لتبدي رأيها المكتسب من الكتب حول المميزات الخاصة للقصائد القصيرة والمغناة ، مستفيداً من أن المادة المطبوعة لا تسبب الإحراج ولا تخون إحرازات الكاتب الحقيقية . بانفعال شديد هددني صديقي بأن حامل شهادة بكالوريوس سيكتب رداً . شهادة بكالوريوس ! صعقت مبكراً ، مثلما يوم كنت صغيراً وصاح ابن أخي ساتيا طالباً الشرطي . كان بإمكانني رؤية عماد حجتي المظفرة القائم على طبقات من التفوق الجيد ، يتقوض أمام ناظري تحت هجمة الاقتباسات السلطوية عديمة الرحمة ، ويسد الباب تماماً أمامي بحيث لا يرى جمهور القراء وجهي مرة أخرى . واحسرتاه على نقدي ، تحت أي نجم شرير ولد !! قضيت أياماً في ترقب رهيب ، لكن مثل شرطي ساتيا ، لم يظهر حامل شهادة البكالوريوس .

بهانو سينجه

كما أسلفت كنت طالباً مولعاً بسلسلة قصائد فيشنافا القديمة التي جمعها ونشرها بابوس اكشاي ساركار وسارادا ميتر . وجدت لغتهم المزوجة جيداً بالمشيلي صعبة الفهم ، لذا تكبدت المصاعب للوصول إلى معانيهم . كانت مشاعري حيالهم مثل الفصول الملح الذي أحسست به حيال برعم غير نابت في بلرة أو الأمور الغامضة الكائنة تحت أديم الأرض ، آزر حماسي الأمل في اكتشاف بعض الجواهر الشعرية المجهولة ، وأنا أغوص أعمق وأعمق في الظلمة غير المكتشفة في بيت الكنز هذا .

أخبرني أكشاي شودهوري وأنا منهمك في هذا حكاية الشاعر الإنجليزي الصبي شاتيرتون . لا أدري كيف كان شعره ، ولا أحسب أكشاي بابو يدري ، لو علمنا لفقدت القصة سحرها ، لكن العنصر الميلودرامي فيها ألهب مخيلتي : فكرة أن شاتيرتون خدع كثيرين بتقليده لبعض الشعراء القدامى والذي تبعه بانتحاره المأساوي يافعاً . بالتغاضي عن انتحاره شمريت عن ساعدي لأضاهي شاتيرتون

الصغير .

تكدست الغيوم بثقل في شهر يوم ما . في أعماق هذه القيلولة المظلمة . انبطحت على سريري في حجرتي الداخلية وخططت على

لوح Gahana Kusuma Kunja Majhe

كنت في غاية السرور لتقليدي قصيدة ميثلية ، ولم أضيع فرصة في قراءتها على أول شخص أقابله . لم تكن هناك أدنى خطورة من عدم فهمه كلمة منها ؛ وعليه لم يملك إلا أن بهز رأسه بوقار ويقول «جيد ، جيد جداً ، بالفعل» . في وقت لاحق ، عرضت القصائد على صديق قائلاً «مخطوطة قديمة بالية اكتشفت خلال التنقيب في مكتبة أدبي براهمو ساماج . نسخت منها بعضاً من قصائد شاعر فاسنافي يدعى بهانو سنجيه ، ثم اتبعت ذلك بقراءة بعض من شعري التقليدي له . تأثر بعمق وهتف بجدل «هذه لا يمكن أن تكتب من قبل فيدياباتي أو شانديداس . يجب أن آخذ هذه المخطوطة حتى ينشرها أكشاي بابو» .

بعد ذلك عرضت عليه دفترتي وأثبت له بحجة مقنعة أن القصائد لم تكتب من قبل لا فيدياباتي ولا شانديداس ، لأن الكاتب هو أنا . بدت على وجه صديقي أمارات الحزني والخيبة وهو يتمتم «أجل ، أجل ، إنها جيدة» .

عندما نشرت قصائد بهانو سنجيه لاحقاً في بهاراتي ، كان الدكتور نيشيكاناتا شاتيرجي في ألمانيا حيث كتب أطروحة في الأدب المقارن بين الشعر الغنائي في بلادنا والشعر الغنائي الأوروبي ، أعطى فيها بهانو

سنجيه مكانة مشرفة كواحد من الشعراء القدامى ، الأمر الذي لا يطمح إليه أي شاعر معاصر . نال نيشيكاناتا شاتيجوي على هذا الموضوع شهادة الدكتوراه .

أياً كان بهانو سنجيه ، لو وقعت كتاباته بين يدي ، أقسم بأني لن أخدع ، يمكن أن تفي اللغة بالغرض المطلوب ، لأن الشعراء القدامى كتبوا دائماً بلغة متكلفة عولجت بأشكال متباينة من الشعراء المختلفين وليس بلغتهم الأم ، لكن لم يكن هناك أي تكلف في أحاسيسهم وعواطفهم ، أي محاولة لاختبار قصائد بهانو سنجيه برنينها ، قد تكشف قلة قيمتها ، لأنها تفتقر إلى لحن واتساق أصوات أنغام مزاميرنا القديمة ، وتشتمل على الرنين الرخيص للأورغن اليدوي الإنجليزي الحديث فقط .

الوطنية

إذا ما نظر إليها من الخارج ، يبدو أن عائلتنا تقبلت كثيراً من العادات الأجنبية ، غير أنه في أغوار قلبها اضطرم كبرياء وطني لم يخبُ لهيبه أبداً . الاعتبار الحقيقي الصادق الذي حملته أبي لبلاده لم يهجره أبداً طوال حياته وكل تقلباتها ، وتجسد في سلالة شعوراً وطنياً قوياً . لا يصدق هذا بأي حال في الزمن الذي أكتب فيه هذه السطور ، أتند حافظ رجالنا المتعلمون على لغة وفكر بلادهم الأم . كان إخوتي الكبار يراعون دائماً الأدب البنغالي بعنايتهم ، أرسل قريب بالمصاهرة مرة رسالة إلى أبي بالإنجليزية ، فأعيدت له رأساً .

أنشأ مهرجان «هندو ميلا» السنوي بمساعدة أسرنا . عين بابو نابا جوبال ميترا مديراً له . لعلها المرة الأولى التي يكرس فيها مهرجان لكل الهند كوطن لنا . نحن أخني الثاني النشيد الوطني الشعبي « بهاراتير جايا» لهذه المناسبة . كان من مظاهر الاحتفال ، غناء الأغاني التي تمجد أرض الوطن ، واللقاء القصائد في حبه . وإقامة معرض للفنون المحلية والأعمال اليدوية وتشجيع المواهب والمهارات الوطنية .

كتبت بمناسبة ديار ^(١) «اللورد كوزون في دلهي مقالة ، وفي حفلة اللورد ليتون قصيدة . صحيح أنَّ الحكومة الإنجليزية حين ذاك كانت تخشى الروس ، لكن ليس قلم شاعر في الخامسة عشرة ، لذا ، ورغم أن قصيدتي لم تفتقر إلى الانفعال الملائم لعمرى ، إلا أن دلالات الرعب لم تظهر في صفوف السلطات من القائد الأعلى للقوات المسلحة إلى مفوض الشرطة . ولم تشر أي رسالة إلى صحيفة «التايمز» بظهور فتور في الشعور بين المسؤولين للتعامل مع هذه الصفاقة ، واسترسلت بنبرات الأسى أكثر من الغضب في التنبؤ بسقوط الإمبراطورية البريطانية . ألقى القصيدة تحت شجرة في احتفال «هندومالا» ، وكان من بين المستمعين الشاعر نابن سين ، الذي ذكرني بذلك بعد أن كبرت .

كان أخي الخامس ، جيوتيرندرا ، مسؤولاً عن جمعية سياسية يرأسها راج نارين لوس العجوز ، تعقد جلساتها في بناية آيلة للسقوط تقع في زقاق كلكتي منعزل ومظلم . كان الغموض يحيط بمحضر الجلسات ، الأمر الوحيد الداعي إلى الخشية ، غير ذلك لم يكن في تداولاتنا أو أفعالنا ما يدعو الحكومة أو الشعب للفرح ، لم تكن عائلتنا تعرف أين كنا نغضي أوقاتنا بعد الظهر . كانت البوابة الخارجية مغلقة وغرفة الاجتماع مظلمة وكلمة السر فيداوي ^(٢) مقدسة وحديثنا همساً . كان

(١) ديار : حفلة رسمية يقدم فيها الرعايا عهد الولاء لأمير هندي أو المعامل البريطاني . (المترجم)

(٢) Vedic mantra : ابتهاج هندوسي أما على شكل توسل أو تكرار كلمة (مقدسة) (المترجم) .

ذلك كافياً لإثارتنا ولم نطمح لأكثر من هذا . كنت عضواً رغم أنني مجرد صبي ، لقد أحطنا أنفسنا بجو من الهذر وبدأ أننا نطفو دائماً على أوهام التأملات . لم نبذ خجلاً ولا حياءً ولا خشية . كان هدفنا الرئيسي أن نستدفيء في حرارة حماسنا .

قد يكون للبطولة عوائقها ، غير أنها استحوذت على البشر بعمق دائماً . يحفظ أدب كل أمة هذا التبجيل حياً ، ولا يقدر أي إنسان أينما وجد نفسه الهرب من تأثير هذا التقليد . كنا في جمعيتنا راضين سعداء بالاستجابة لهذا التقليد بكل ما في وسعنا ، وذلك بترك مخيلتنا تسرح على سجيئتها واستعمال اللغة الطنانة والغناء بحماس متقد .

لا ريب أن إقبال كل الخارج أمام حافز يمثل هذا العمق في الإنسان ومبجل منه ، يخلق ظرفاً غير طبيعي يشر بإحباط الفاعلية . لا يكفي ترك سبل الوظيفة الكهنية في أي خطة شاملة للحكومة الاستبدادية مفتوحة فقط . إذا لم يترك سبيل للمغامرة ، سيتوق الناس إليها ، ويبحثون عن المسالك السرية بطرق ملتوية وأهداف لا تخطر على بال . أعتقد جازماً لو أن الشك خامر الحكومة وقست علينا لتحولت النشاطات الكوميديّة لأعضاء جمعيتنا الشباب إلى مأساة مروعة . انتهت اللعبة ومع ذلك لم تصب أجرّة في حصن وليم ونحن نبتسم للذكرى .

انهمك أخي جيوتيرندار في تصميم لباس لكل الهند ، وقدم عدة تصورات للجمعية . اعتبر مئزر الدوطني غير مناسب للعمل ، والبنتال

كان أجنبياً ، لذا توصل إلى تسوية تنقص من قدر الدوطني ولا ترفع من قدر البنطال ، أي بعبارة أخرى ، زين البنطال بطية دوطني إضافية من الأمام والخلف ، والأثكنى من ذلك جمع عمامة التوربان وقبعة التوبية الهندية التي لم يبلغ الطيش بأشد أعضائنا حماسة أن يدعوها زينة ومفخرة . لم يجرؤ شخص بشجاعة عادية على ارتدائها ، بيد أن أخي لم يحجم عن ارتداء اللباس كاملاً في وضوح النهار ، ومرت بعد ظهر يوم في البيت إلى العرية المنتظرة في الخارج ، لامبالياً بنظرات الأقارب والأصدقاء والبواب وسائق العربة . ربما كان هناك العديد من الهنود الشجعان المستعدين لتقديم أرواحهم من أجل بلادهم ، غير أنني على يقين أن قلة ، ولو لصالح الأمة ، يمكن أن تسير في الشوارع مرتدية مثل هذا الزي الجامع لكل الهند .

كان أخي يذهب للقنص كل يوم أحد . لم نعرف كثيرين من المشاركين من دون دعوة . كان هناك لحار وحداد وآخرون من كل طبقات المجتمع . الشيء الوحيد الذي كنا نفتقر إليه هو سفك الدماء . على الأقل لا يسعني تذكر حدوثه . كانت حسنات الصيد كثيرة ومرضية لحد جعل غياب الطرائد القتيلة أو الجريمة شيئاً نافهاً . وحيث أننا كنا نغادر من الصباح الباكر ، كانت زوجة أخي تزودنا بالزاد الوفير من اللوشيس والأطباق المرافقة المناسبة حتى لا نعود جائعين ولأن حقائقنا لم تعتمد على حصيلة الصيد .

لم نفتقر منطقة مانيكتولا المجاورة إلى حدائق الفيلات التي كنا نذهب

إليها لنستريح على حافة حوض استحمام ونلتهم اللوشيس بشهية ولا نبقى إلا الأواني والأوعية . كان براجا بابو أكثر المتحمسين لرحلات القنص هذه التي لا تسفك فيها الدماء . كان يشغل منصب مدير معهد الميتروبولتان ومدرسنا الخاص أيضاً . جاءته مرة فكرة بمبادرة حارس حديقة انتهكنا حرمتها بقوله «مرحباً ، هل قدم العم هنا مؤخراً؟» لم يدخر الحارس وقتاً للترحيب بنا باحترام قبل أن يجيب «كلا ، ياسيدي ، لم يحضر السيد هنا مؤخراً» . «حسناً ، اقطف لنا بعض جوز الهند الأخضر عن الشجر» . شربنا شراباً جيداً بعد اللوشيس ذلك اليوم .

كان يصبحنا في القنص إقطاعي جابي ضرائب غير ذي شأن ، يملك فيلا على ضفة النهر . في أحد الأيام خرجنا للنزهة معه دون اعتبار للقوانين الصارمة . بعد الظهر انفجرت عاصفة عاتية . وقفنا على الدرجات المؤدية إلى الماء وانطلقنا صارخين بالغناء . ليس بوسعي الادعاء أن أحرف السلم الموسيقي السبعة كانت مميزة في غناء راج نارين بابو ، لكنه بالتأكيد غنى بكل ما عنده من حيوية مفعمة ، وكما في الأعمال السنسكريتية القديمة حيث يفرق النص ضائعا في الألحان ، كان نشاط أطرافه وتقاسيم وجهه يعوضان ضعف أداء صوته ، ورأسه يتأرجح من جهة إلى أخرى وهو يراوح الخطى واقفاً في مكانه والعاصفة تعبت في لحيته بفوضى عارمة . كان الوقت متأخراً حين توجهنا بعربة أجرة صوب البيت . انقشعت الغيوم ، تلالأت النجوم ،

أسدل الظلام الكثيف ستاره ، أطبق صمت الجو ، هجرت طرق القرية ، وامتلأت الأدغال على الجانبيين باليراعات مثل كرنفال من شرر نثرته أطياف من المعريدين .

كان أحد أهداف جمعيتنا تشجيع تصنيع أعواد الثقاب والصناعات الصغيرة الأخرى . توجب على كل عضو المساهمة بعشر دخله لهذا الهدف . كان الثقاب مطلوباً ، لكن يصعب الحصول على الخشب اللازم لصناعاته ورغم معرفة الجميع لعيدان كالمجرا والشدة التي يفترض أن تستخدم بها الحزمة ببراعة من قبل ربة البيت سريعة الغضب ، فإنها تشعل الخلفيات قليلاً فقط لا فتيل المصباح . لمجنا بعد تجارب عدة في صنع علبة . لم تكن قيمتها محصورة في نار الوطنية التي كرس لها فقط . كان يمكن للمال الذي أنفق عليها أن يبقي موقد العائلة مشتعلاً لمدة سنة . العيب الآخر أن عيداننا لا تشتعل دون وجود نار في متناول اليد لمساعدتها على الاشتعال . لو أنها تشربت بعضاً من الروح الوطنية التي وضعت من أجلها فقط ، لسوّقت حتى في أيامنا هذه .

ثما إلى علمنا أن طالباً شاباً يحاول صنع نول كهربائي . ذهبنا لرؤيته دون أدنى معرفة للحكم على فاعلية النول واستخدامه عملياً . إلا أن مقدرتنا على التصديق والأمل كانت كبيرة . دفعنا للطلاب المسكين ما استدانه لدفع تكاليف آله . في أحد الأيام ، جاء براجا بابو إلى بيتنا ومنشفة رقيقة رديئة الصنع معقودة حول رأسه « من صنع نولنا » صاح وهو يرفع يديه ويرقص رقصة الحرب . حتى في ذلك الوقت ، كان

شعريراجا بابو أشيياً !

أخيراً انضم إلى جمعيتنا من لهم خبرة بالحياة والناس ، وجعلونا نتذوق ثمرة المعرفة ، وبذلك وضعوا حداً لفردوسنا الصغير .

عندما تعرفت على راج نارين بابو أول مرة ، كنت أصغر من أن أقدر تعدد اهتماماته ومؤهلاته ، كان يجمع العديد من المتناقضات ورغم بياض شعره ولحيته كان شاباً مثل أكثرنا شباباً ، ووقاره الخارجي عباءة بياض حافظت على شبابه دائم النضارة ، وفشل حتى علمه الواسع من مضمرته ، كان شفافاً صريحاً بكل ما في الكلمة من معنى . لم تعان ضحكته الصادرة من القلب حتى آخر حياته كبشاً لا من رزاة عمر أو سوء صحة أو حزن محلي أو استبطان عميق ، ولا من تنوع واختلاف دروب المعرفة . كانت كلها ملكه بوفرة .

كان طالباً مفضلاً عند ريتشاردسون ، نشأ وترعرع في جو تعليم إنجليزي ، غير أنه طرح جانباً كل المعوقات التي خلقتها طباعه المبكرة وكرس نفسه ووجهها بحب إلى الأدب البنغالي ، كان أكثر الرجال حلماً ، توهجت ناره الباطنية حتى أقصاها في وطنيته ، كما لو أنها تود حرق عوز بلاده وغيوبها حتى الرماد ، ذكرى هذا الرجل القديس ، المبتسم بطلاوة ، دائم الشباب الذي لا يعرف الكلال بسبب مرض أو مصاب جلل ، تستحق أن تبقى معززة مكرمة في ذهن مواطني بلاده .

بهاراتي

كانت الفترة التي أكتب عنها مرحلة إثارة وجد بالنسبة لي ، حيث قضيت كثيراً من الليالي ساهراً لا لسبب إلا لمجرد الرغبة والنزوة لفعل عكس ما هو بديهي . قد أقرأ وحيداً في ضوء حجرة الدراسة الواهن ، وساعة الكنيسة البعيدة تفرع كل ربع ساعة كما لو أن كل ساعة تمر معروضة في مزاد علني ؛ وبين حين وآخر يعبر حاملو الموتى شارع شيتور في طريقهم إلى محرقة نيمتولاه ، وهم يطلقون صرخات « هاريبول » المدوية . قد أتجول في ليالي الصيف المقمرة أحياناً كروح قلقة بين رقعات ضوء ظلال قدور وأحواض النبات الخشبية المنصبة من السطح على أرض الحديقة .

يخطيء من يظن هذا مجرد إضفاء مسحة شاعرية ، فالأرض رغم عمرها وثباتها ، لا تزال تدهشنا بين فينة وأخرى بهزة أرضية ، قبل أن تتحجر وتقسو قشرتها ، كانت بركانية هائجة وتقوم بأعمال طائشة . كذلك الحال مع شاب يانع ، طالما أن مكوناته لم تصل إلى شكلها النهائي فإنها عرضة للتمرد والهيجان .

في هذا الوقت قرر أخي جيوتيريندرا الشروع في نشر بهاراتي مع أخي الكبير كرئيس تحرير ليعطي حماساً زائداً جديداً . كنت حين ذاك في السادسة عشرة ، إلا أنني لم أستثنَ من هيئة التحرير . قبل ذلك بقليل وبكل غطرسة وغرور الشباب كتبت نقداً حول «ميجهنداباد» . كما الحموضة من صفات المائها الفجة ، فإن التعسفات كذلك من صفات النقد غير الناضج . حين لا تتوفر القوى الأخرى ، يبدو أن قوة الوحز تزداد حدة . وهكذا حاولت الحصول على الخلود بترك خدوشاتي على ملحمة خالدة . كانت هذه الصفاقة النقدية أول مساهماتي في بهاراتي .

نشرت في المجلد الأول أيضاً قصيدة طويلة تدعى « قصة الشاعر» كانت من نتاج ذلك العمر حيث لا يرى الكاتب شيئاً من العالم سوى الصورة المضخمة لذاته الضبابية . كان بطلها بطبيعة الحال شاعراً ، لكن ليس الكاتب كما كان في الواقع ، بل كما يجب أن يرى وفق اعتقاده ، لا يرغب في أن يكون ما هو عليه ، بل يود أن يوميء العالم برأسه عجباً ويقول «أجل ، هذا شاعر حقاً ، وكما يجب أن يكون» تقدم القصة استعراضاً عظيماً للحب الشامل ، الموضوع الأثير للشعراء الناشئين ، الذي يبدو مهماً كسهولة الكلام حوله . قبل أن تشرق الحقيقة على عقل الإنسان ، وتكون كلمات الآخرين مخزونه الوحيد ، تغدو البساطة والاقتصاد في التعبير غير ممكنين . عوض ذلك ، يصبح لا مفر من عرض السخافة والمبالغة الغروتسية والسعي لتضخيم ما هو

كبير بالفعل .

حين تتورد وجنتاي خجلاً ، وأنا أقرأ هذه الدفقات من أيام صباي المبكر ، أخشى أن يتخلف في كتاباتي اللاحقة أيضاً ، ويشكل أقل وضوحاً نفس التشويه الناتج عن توتر التأثير . كثيراً ما يطمس ارتفاع صوتي ما أود قوله . لا أشك أن الزمن سيكتشفني يوماً ما .

كان « كاييكاهيني » أول عمل يظهر لي في شكل كتاب . يوم ذهبت مع أخي الثاني إلى أحمد أباد ، فاجأني صديق متحمس بطبعه ونشره وإرسال نسخة منه لي . لم أتصور أن ذلك فكرة حسنة ، غير أن الشعور الذي بعثه بي في ذلك الحين لم يكن ساعطاً . لقي الصديق جزاءه ، ليس من الكاتب ، بل من الجمهور الذي يتحكم بعملية الشراء . سمعت أن وزن هذه الكتب الميت أنقل رفوف باعة الكتب وتفكير الناشر سيء الطالع وقتاً طويلاً .

لا يمكن أن تكون الإسهامات التي قدمتها في ذلك العمل البهاراتي صالحة للنشر . ليس هناك من سبيل يضمن التوبة في النضوج أفضل من النشر المبكر في الصغر . لكن ما يعوض ذلك هو أن النزوة التي لا تقاوم لرؤية المرء كتاباته مطبوعة سرعان ما تستنزف نفسها . من هم قراؤك وماذا يقولون ؟ ! أي أخطاء مطبعية بقيت دون تصليح ؟ هذه وأمثالها من التساؤلات المقلقة تأخذ مجراها المؤلف كأعراض الطفولة وتترك فراغاً للمرء لاحقاً ليعتني بأعماله الأدبية وهو بحالة ذهنية أكثر صحة .

ليس الأدب البنغالي من القدم بما يكفل له تطوير الكوابع الداخلية التي يمكن أن تسيطر على مرديده . على الكاتب البنغالي أن يستنبط قوى كابحة تنبع من ذاته خلال كسبه للتجربة . يستحيل عليه تجنب تقديم كمية كبيرة من الهراء لوقت طويل ، يستحوذ عليه .

في البدء طموحه في عمل العجائب بالموهبة المتواضعة المتوفرة له ، وتستحنه لأن يسمو بقدراته الطبيعية في كل خطوة وبعد ذلك مباشرة تأتي قيود الحقيقة والجمال . يبدو هذا جلياً في الأعمال المبكرة يستغرق الإنسان وقتاً طويلاً لأن يستعيد ذاته الطبيعية ويتعلم احترام قدراته .

ذلك يعني أنني تركت كثيراً من حماقات الشبان المتهجلة تلوث صفحات بهاراتي ، ولا تخجلني عيوبها الأدبية فقط ، بل وقاحتها البغيضة وغلوها وتكلفها الطنان . من ناحية أخرى ، رأيت في كتابة تلك الفترة حماسة طاغية ليس بوسعي التغاضي عنها . إذا كان ارتكاب الخطأ ضرورياً لإذكاء لهيب النيران ، فلإنها الآن اضمحلت إلى رماد تاركة العمل الجيد للنيران التي لم تشتعل عبثاً .

أحمد أباد

يوم دخلت بهاراتي عامها الثاني ، اقترح أخي الثاني أن يأخذني إلى إنجلترا ، وافق أبي ودهشت لتحقيق تلك الهبة الإلهية التي لم أطلبها بعد .

صاحبت أخي كخطوة أولى إلى أحمد أباد حيث عين قاضياً . كانت زوجة أخي وأولادها حين ذلك في إنجلترا ، لذا كان البيت خالياً . كان بيت القاضي الذي يعرف بشاهييه قصرأ لقدماء البادشاه . بمحاذاة الحائط الذي يدعم سطحية عريضة ، كان جدول صيفي صغير لنهر سابارماتي ينساب وعلى حافته طبقة رملية فسيحة . حين يذهب أخي إلى المحكمة ، كنت أبقى وحيداً في القصر الواسع مع سجع الحمام الذي يكسر هدوء منتصف النهار . كنت دائم التجوال في الغرف الفارغة بفعل فضول لايمكن تعليله .

وضع أخي كتبه في الفراغات الموجودة في جدران حجرة واسعة . كان أحدها نسخة بهية لأعمال تينيسون مطبوعة بحروف كبيرة وصور متعددة . كان الكتاب ، بالنسبة لي ، صامتاً كالقصر ، أجول في

صحائفه الملونة كما أجول في القصر . رغم عدم فهمي لشيء من النص ، إلا أنه خاطبني بسجع عاجز عن الإنصاح لا بالكلمات . وجدت أيضاً في مكتبة أخي كتاباً لمجموعة شعر سنسكريتية من تحقيق الدكتور هايبيرلن ، مطبوع في مطبعة سيرامبور القديمة . كان هذا أيضاً فوق مستوى إدراكي ، لكن أخذتني الكلمات السنسكريتية الطنانة وسير الوزن في جولة بين قصائد «أساروشاتاكا» وإيقاعها القديم .

كانت الغرفة العليا في برج القصر صومعتي ، بلا رفيق سوى عشب دبابير ، هناك في الظلمة الداكنة كنت أنام وحيداً ، أحياناً يخرج زنبور أو اثنان من العش ويحيطان على فراشي ، فإذا حدث أن انقلبت على أحدّها يكون اللقاء غير سار للزنبور وكثيراً لي .

كانت إحدى نزواتي أن أسير جيئةً وذهاباً على السطحية الواسعة المطلة على النهر تحت ضوء القمر . كتبت أول ألحان أغنيائي وأنا أقوم بذلك . الأغنية الموجهة إلى الوردة التي لم تمس ، كانت أحدّها ولا تزال تجد موضعاً في أعمالي المنشورة .

شرعت في قراءة الكتب الإنجليزية بمساعدة القاموس بعد أن أدركت عدم كمال معرفتي باللغة الإنجليزية . كانت عادتي منذ نعومة أظفاري أن لا أدع أي نقص في الفهم الكامل يعترض سير مطالعتي ، لكن حتى أشعر بالرضا على البنية كانت مخيلتي تشاد على التفت التي أفهمها . لازلت حتى اليوم أقطف التأثيرات الجيدة والسيئة لهذه العادة .

إنجلترا

بعد ستة أشهر في أحمد آباد ، انطلقنا في رحلتنا إلى إنجلترا . رحلت
أكتب في لحظة مشؤومة رسائل حول رحلتي إلى أقاربي وبهاراتي ،
ليس بوسعي الآن تذكرها ، لم تكن سوى ثمرة تبجححات شاب يافع .
في ذلك العمر يرفض العقل الاعتراف بأن أعظم مسببات الكبرياء
تقع في قدراته على الفهم والقبول والاحترام وأن التواضع أرفع سبيل
لتوسيع ملكاته . يغدو الإعجاب والإطراء علامة للضعف أو
الاستسلام ، والرغبة في انتقاص القدر والأيذاء ودحض الحجة في
النقاش تبعث على نوع من ألعاب النار الثقافية . كان من الممكن
لمحاولتي هذه في تثبيت تفوقي باللعن والشتائم أن تكون مسلية الآن ،
لو لم يكن عوزها للاستقامة والكماسة العامة مؤلماً جداً .

عملياً ، لم تكن لي في صغري صلة بالعالم الخارجي ، لذا كان
لإقحامني في خضم بحر إنجلترا الاجتماعي وعمرى سبعة عشرة سنة
مايرره من الشك العظيم لإمكانية بقائي عائماً . لكن تسنى لي بفضل
حماية زوجة أخي التي كانت مع أطفالها في برايتون تحمل الصدمة
الأولى .

كان الشتاء يدنو ، وفي إحدى الأمسيات كنا نجلس حول المدفأة تنجاذب أطراف الحديث ، حين جاء الأطفال راكضين ليزفوا لنا الخبر المثير عن تساقط الثلوج ، خرجنا رأساً ، كان الهواء قارص البرودة والسماء مضاء بنور القمر والأرض متدثرة ببياض الثلج . لم يكن ذلك مظهر الطبيعة المألوف لي ، كان شيئاً آخر مثل الحلم ، تراجع كل ما هو قريب بعيداً ، مخلفاً وراءه زاهداً أبيض ثابتاً غارقاً في تأمل عميق . مثل هذه الرؤيا المفاجئة الرائعة الجمال الناجمة عن مجرد الخطو عبر الباب ، لم تحدث لي من قبل أبداً .

مرت أيامي بهناء تحت رعاية زوجة أخي الحنونة والمرح الصاخب مع الأطفال الذين أبهجهم لفظي الغريب للإنجليزية . لم أر سبباً للضحك من ذلك ، وإن شاركتهم ألعابهم بكل جوانحي . كيف لي أن أشرح لهم انعدام المنطق في التفريق بين صوت «a» في كلمة warm وصوت «o» في كلمة worm ؟ أجبرت على تحمل وطأة السخف إلى أقصى حد بسبب تقلبات يصعب تعليلها في التهجئة الإنجليزية .

أصبحت خبيراً في اختراع أساليب جديدة لإبقاء الأطفال مشغولين ومسرورين . قدم لي هذا الفن منذ ذلك الحين منفعة عظيمة ، لكن لم أشعر بنفس الغزارة اللامحدودة للاختراع التلقائي . كانت هذه فرصتي الأولى لأهب قلبي للأطفال ، فرصة تحلت بكل نضارة وتدفق غزارة المنحة الأولى .

مع ذلك لم أقم بهذه الرحلة لأستبدل بيتاً خلف البحار بواحد في

هذا الجزء من العالم ، كانت الفكرة أن أدرس القانون وأعود للعمل كمحام في المحاكم العليا . لذا ألحقت بمدرسة في برايتون . كان أول ما قاله المدير لي بعد أن تفحص ملامحي «ما أعظم رأسك !» بقي هذا الوصف في ذاكرتي بسبب ما عاهدت نفسي عليه في البنغال من كبح نفسي ، ولأنه طبع في ذهني أن جمجمتي وعلامتي مقارنة بالآخرين بشكل عام هي بالكاد من القياس العادي ، أتمنى أن يقدرني القارئ لتصديقي ذلك ضمنياً والرثاء في سريره لاقتصاد خالقي ، في عدة مناسبات أخرى حين قيمت من قبل معارفي الإنجليز بشكل مختلف لما تعودت عليه ، ساورني القلق بجدية حول اختلاف معايير الذوق بين البلدين .

ما بدا رائعاً بحق مدرسة برايتون أن الطلاب الآخرين لم يكونوا جلفين في معاملتي ، على النقيض ، كثيراً ما وضعوا البرتقال والتفاح في جيوبي قبل أن يفروا راكضين . أفسر هذا السلوك غير العادي لكوني أجنبياً بينهم .

لم أمكث في المدرسة طويلاً ، لالتقص بها ، وإنما لأن السيد طراق باليت الذي كان حين ذاك في إنجلترا ، رأى أن المدرسة لاتناسبني ، وأقنع أخي بالسماح له لأخذني إلى لندن والتزول في بيت مستأجر . كان النزول الذي اختاره يقابل ريجنت بارك . بعث منظر الأشجار العارية في زمهرير الشتاء القشعريرة في عظامي . كانت تصطف في الخارج شاخصة بأغصانها الضامرة المغطاة بالثلوج ، وهي تحرق في

السماء .

يصعب وجود مكان أكثر قسوة لغريب حديث القدم إلى مدينة من لندن في الشتاء . لم أعرف أحداً في الجوار ولم أجد طريقي بسهولة . قضيت أياماً طويلة جالساً لوحدي قرب النافذة ، أهدق في الخارج ، ولم يكن المنظر الجديد جذاباً ، ثمة نجهم يشوب هدوءه والسماء مكفهرة بلا بريق معين رجل ميت . كان كل شيء متكوراً على نفسه وينأى عن بقية العالم . لم تكن الحجرة مزودة بالقدر الكافي من الأثاث . لكن كانت هناك آلة موسيقية من نوعية الأرغن ، رحت أعزف عليها كما أشاء بعد أن ينصرم النهار قبل أوانه . كان الهنود يأتون أحياناً لزيارتي ، ورغم أن معرفتي بهم كانت سطحية ، لكن حين ينهضون للذهاب ، كنت أود الإمساك بهم من أطراف معاطفهم .

حين كنت في ذلك النزول ، جاء رجل لتدريسي اللاتينية ، لم يكن جسمه النحيل وأسماله البالية بأفضل من الأشجار العارية في تحمل قبضة الشتاء ، لم أعرف عمره ، لكن من الجلي أنه كان يبدو أكبر من سنه . كان يرتبك أحياناً خلال دراستنا على حين غرة ، عندما تخونه كلمة ، فيشعر بالإحراج ويخلو وجهه من التعبير . كانت عائلته تعتقد أنه مهووس لاستحواذ نظرية على تفكيره تقول بهيمنة فكرة واحدة في كل عصر على كل المجتمعات البشرية في كل أرجاء العالم ، وإن كانت تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة بدرجات حضارية متباينة ، إلا أنها في الأساس واحدة ، ولا تنقل هذه الفكرة من مجتمع لآخر بالاحتكاك

لأنها توجد حتى في حالة انعدام الاتصال . كان شاغل هذا الرجل الرئيسي جمع وتسجيل الحقائق لإثبات نظريته ؛ في غضون ذلك ، افتقر بيته إلى الطعام وجسده إلى اللباس . كان احترام بناته لنظريته قليلاً وربما يويخه دائماً بقسوة بسبب افتتانه بها . قد يرى المرء على وجهه أحياناً علامات تدل على توصله لإثباتات جديدة وأن مقولته حققت تقدماً مماثلاً ، فأتطرق إلى الموضوع وأحمس لحماسه وفي أيام أخرى يغمره الأسى ، كما لو أن عبثه أثقل من أن يحمله . عندما يتوقف درسنا وتشرد عيناه بعيداً في الفراغ ويرفض عقله العودة إلى صفحات كتاب «مبادئ القواعد اللاتينية» . كنت أشعر بالأسى لنحول جسده الجائع وروحه المثقلة بالنظرية . ورغم أنني كنت أشك في قدرته على تدريسي اللاتينية ، إلا أنني لم أقدر على أخذ قرار بالتخلص منه . استمر زعمنا بدراسة اللاتينية طوال إقامتي في ذلك المنزل ، أثار شفتي في المساء الذي أردت فيه أن أسوي حسابه حين رحيلي بقوله «لم أفعل شيئاً سوى إضاعة وقتك . لا أستطيع قبول أي مال منك» . أخيراً وبصعوبة كبيرة استطعت إقناعه بأخذ مستحقاقه . لا زلت أصدق نظرية مدرسي ، مع أنه لم يغامر بتناً بإزعاجي بالبراهين التي تثبتها ، أعتقد أن عقول البشر متصلة معاً بوسيط عميق مستمر وأن أي اضطراب في جزء يصل سرّاً إلى الأجزاء الأخرى .

بعد ذلك وجد لي السيد باليت مسكناً في بيت مدرس خصوصي يدعى باركر ، يؤجر بيته للطلاب ويعدّهم للامتحانات . باستثناء

زوجته الرقيقة ، لم يكن هناك ما هو جميل في بيته . يمكن للمرأة تفهم إمكانية جذب هذا المدرس للطلاب ، لأن تلك المخلوقات المسكينة لا تملك فرصاً للاختيار ، لكن من المؤلم التفكير في الظروف التي يحصل به مثل هؤلاء الرجال على زوجات ، حاولت السيدة باركر تعزية نفسها بترية كلب ، لذا كان السيد باركر يعذب الكلب حين يود عقاب زوجته . لذا كان اعتمادها على هذا الحيوان يساعد في زيادة ضعفها وقابلية تعرضها للهجوم .

كان سروري بالغاً للهرب من هذا المحيط ، عندما أرسلت زوجة أخي في طلبي من توركي في ديفونشير ، ليس بوسعي التعبير عن مدى سعادتي وأنا بين التلال هناك قرب البحر في الحقول المكسوة بالزهور وتحت ظلال غابات الصنوبر ومع مرافقاي الصغيران اللعويان دائما الحركة . مع ذلك كان الشك يساورني ويعذبني حين أسأل نفسي لماذا يهجرني الشعر حين تتخمد عيني بالجمال الوافر ، ويشبع عقلي بالفرح وتمتد أيامي المترفة إلى آفاق غير محدودة من السعادة المحضة ؟ ! لذا ذهبت يوماً إلى الشاطئ الصخري ، مسلحاً بدفترتي ومظلة لأني بقدرتي الشعري . لم يكن هناك شك بجمال البقعة التي اخترتها واستقلالها عن أحلامي ونظمي . لوح صخري معلق فوق المياه ، كما لو أنه يود الدنو منها ، والشمس راقدة في السائل الأزرق باسمه ، تهزها تهوية الأمواج المقطرة زيداً ، وفي الخلفية ، تبسط ذائب الصنوبر ظلالتها كنوب تخلعه حورية غابة متراخية . متوجاً في مقعدي

الصخري ، كتبت قصيدة «القارب الغريق» . كان يمكن أن أحسبها جيدة الآن لو أنني أخذت الاحتياطات اللازمة وأغرقتها في البحر في تلك الساعة ، غير أن هذا العزاء غير متوفر ، لأن القصيدة لا تزال موجودة ، ورغم أنها مستثناة من أعمالني المنشورة ، إلا أن أمراً قد يتسبب في نشرها .

مع ذلك ، كان نداء الواجب ملحاً . عدت إلى لندن لأجد الملجأ هذه المرة في بيت الدكتور سكوت ، الذي غزت بيته في أمسية جميلة بحقيقية وأمتعة ، كان الدكتور بشعره الأبيض وزوجته وابنته الكبرى هناك فقط . البنتان الصغيرتان المدعورتان من غزوة الهندي الغربي ذهبتا للسكن مع قريب ، أظن أنهما عادتا بعدما قيل لهما إنني غير مؤذ .

أصبحت في وقت قصير كأحد أفراد الأسرة . عاملتني السيدة سكوت كابن ، وكان لطف بناتها التابع من القلب نادراً حتى في الأقارب .

ما استرعى انتباهي خلال عيشي مع هذه العائلة أن الطبيعة الإنسانية متشابهة في كل مكان . نحن مولعون بالقول ، وأنا أيضاً كنت أؤمن بذلك ، أن إخلاص وتفاني الزوجة الهندية لزوجها شيء نادر ولا يوجد في أوروبا . ولأنني لم أقدر على تمييز أي فارق بين السيدة سكوت والزوجة الهندية المثالية . كانت السيدة سكوت مكرسة نفسها تماماً لزوجها ، ويسبب مواردهم المتواضعة ، لم يكن هناك هرج ومرج

حول وجود عدد كبير من الخدم . كانت السيدة سكوت تقوم بنفسها بكل كبيرة وصغيرة من احتياجات زوجها . قبل أن يعود للبيت من العمل في المساء ، تضع أمام المدفأة أريكته وخفه الصوفي . لم تغفل إطلاقاً الأشياء التي يحبها أو التصرف الذي يسره . كانت تنظف البيت كل صباح مع خادمتها الوحيدة من المطبخ وحتى الغرفة الكائنة تحت السقف ، وتفرك وتلمع قضبان الدرج النحاسية ومقابض الأبواب ولوازم البيت حتى تتألق ثانية . كانت تلبى علاوة على الروتين البيتي ، متطلبات الواجبات الاجتماعية الكثيرة . بعد الانتهاء من أعمالها اليومية ، تنضم إلى قراءتنا المسائية والاستماع للموسيقى بمتعة ، لأن إضفاء المرح على ساعة الفراغ هو جزء من واجبات ربة البيت الصالحة .

في بعض الأمسيات ، كنت والفتيات نقوم بجلسة تحضير للأرواح . نضع أصابعنا على طاولة شاي صغيرة تأخذ في الطفر مرحاً في الحجرة .

وصلت الأمور إلى حد أن كل ما نلمسه يهتز ويرتجف . لم يعجب ذلك السيدة سكوت إطلاقاً . أحياناً تهز رأسها بوقار قائلة إنها تشك في صحة وصدق ذلك ، لكنها تحملت الأمر بشجاعة كي لا تجلب الكآبة للنفوس اليافعة ، حتى كان يوم وضعنا فيه أيدينا على طاوية المدخنة الخاصة بالدكتور سكوت . كان ذلك أكثر مما تتحمل . انطلقت إلينا غاضبة ومنعتنا من لمسها . لم تتحمل التفكير للحظة أن يكون للشيطان

أي عملٍ ولو مؤقتاً في خوزة زوجها .

كان لتبجيل زوجها المقام الأول في كل أفعالها . تكشف لي ذكرى نكران ذاتها الحلوة أن التعبير الأسمى في كل دروب الحب الانثوي يوجد في التبجيل ، وحيث لا يعوق دخيل تطوره الحقيقي ، ينمو حب المرأة بشكل طبيعي ليرقى إلى العبادة . لا يتسنى لطبيعة المرأة التعبير الكامل عن نفسها ، حيث زخارف الترف كثيرة ، والعبث يبدد الليل والنهار ، عندها ينحط هذا الحب .

قضيت بضعة أشهر في ذلك البيت ، حتى أزف موعد إياب أخي للوطن وكتب لي والدي أن أرافقه . أبهجتني التوقعات المحتملة ، ضوء بلادي وسماؤها كانا يدعوانني بصمت . حين قلت وداعاً ، أخذتني السيدة سكوت من يدي وقالت باكية «لماذا قدمت إلينا ، إذا كان عليك العودة سريعاً؟» .

لم يعد لذلك البيت من وجود في لندن . رحل بعض أفراد أسرة الدكتور إلى العالم الآخر ، وآخرون تفرقوا في أماكن مجهولة ، إلا أنه لا يزال قائماً في رأسي .

في أحد أيام الشتاء ، رأيت وأنا أعبر شارعاً في تونبريج ويلز ، رجلاً يقف على جانب الطريق . كانت أصابع أقدامه العارية تظهر من ثغرات حذاءه المشقق ، وجزء من صدره مكشوف . لم يبادرني بشيء ، ربما لأن التسول كان ممنوعاً ، لكنه رفع بصره في وجهي لوهلة . لعل قطعة النقود التي أعطيتها إياها كانت أكثر مما توقع ، لأنه تبعني بعد أن ابتعدت

نليلاً وقال «ياسيد ، لقد أعطيتني قطعة ذهبية بالخطأ .» وعرض عليّ إعادتها . كان يمكن أن لا أذكر تلك الحادثة ، لكنها تكررت مرة أخرى في وقت آخر ، عندما وصلت أول مرة إلى محطة قطار توركي ، أخذ حمّال حقّيتي إلى عربة الأجرة في الخارج . بعد أن بحثت في حافظة نقودي عن قطعة نقد صغيرة بلا جدوى ، أعطيته نصف كراون* والعربة قد شرعت في الانطلاق ، لحق بنا بعد وهلة واكضاً وهو يصرخ في السائق أن يقف . تصورت أنه سيطلب المزيد لأني بتلك السداجة . عندما توقفت العربة قال «لا بد أنك أخطأت باعطائي نصف كراون عوض بنس واحد» ، ياسيد .

لا اقول إنني لم أخدع إطلاقاً في إنجلترا ، لكن ليس بالشكل الذي يحفظ في الذاكرة . ماثبت عندي بشكل أساسي هو الاعتقاد أن من هم جديرون بالثقة فقط يعرفون كيف يثقون . كنت أجنبياً مجهولاً وبإمكانني عدم الدفع والإقلاّت من العقوبة بمتهى السهولة ، مع ذلك لم يسيء الظن بي أي صاحب متجر في لندن .

تورطت خلال كل إقامتي في إنجلترا في مهزلة عليّ روايتها كاملة من البداية إلى النهاية . حدث أن تعرفت على أرملة مسؤول إنجليزي-هندي رفيع المرتبة . كانت من لطفها تنادينني باسم التحبب روبي . نظم أحد أصدقائها الهنود قصيدة حزينة بالإنجليزية في ذكرى زوجها ، لست بحاجة لذكر مآثرها كشعر أو لباقة أسلوبها في التعبير ،

* كراون : قطعة نقدية تساوي خمس شلنات ، والبنس ١/١٢ من الشلن (الترجم) .

أشار المؤلف كما شاء سوء الحظ ، أن تغني هذه الترنيمة الجنائزية على طريقة الراجا بيهاج التقليدية القديمة . في أحد الأيام توسلت الأرملة أن أغنيها على هذا النحو ، ولكوني ساذجاً بسيطاً وافقت بضعف . من سوء الطالع لم يكن أحد حاضراً ، غير أنني أدركت المزيج المروع لهذه الأبيات السخيفة والراجا بيهاج . تأثرت الأرملة لسماع الرثية الهندية لزوجها تغني بلحنها الأصلي . حسبت أن المسألة انتهت هنا ، لكن ما كان شيء آخر .

قابلت السيدة الأرملة مراراً في الحفلات الإجتماعية المختلفة . بعد العشاء عندما نلتحق بالسيدات في غرفة الجلوس ، كانت تطلب مني غناء تلك البيهاج . من الجلي أن الآخرين كانوا يتوقعون عينة رائعة من الموسيقى الوطنية ويضيفون توسلاتهم إلى استعطافها . من جييها تخرج نسخاً مطبوعة للقطعة المشؤومة وتبدأ أذناي في الاحمرار والإحساس بوخز الفاجعة . أخيراً برأس منحنٍ مطرق وصوت مرتجف ، أحاول تقديمها بالشعور الحاد . إنني الوحيد في الحجرة الذي يظن أن الأداء مفجع . بعد ذلك ، من خلال الضحكات الكثيرة المكبوتة ينطلق صوت جماعي «شكراً جزيلاً» ، ما أروعها ! . كنت أئصب عرقاً رغم الشتاء ، من بوسعه أن يتوقع يوم مولدي أو في مماته قسوة الضربة التي سببها لي موت هذا الإنجليزي- الهندي المبجل الموقر !! من ثم فقدت الصلة مع الأرملة حين كنت أسكن مع الدكتور سكوت وأحضر المحاضرات في الجامعة . كانت تقطن في الضواحي

بعيداً عن المدينة ، وترسل إليّ الدعوات لزيارتها بين حين وآخر ، لكن الخشية من الترنيمة جعلتني لأليها . أخيراً تسلمت برقية مستعجلة وأنا في طريقي إلى الجامعة مفادها أن إقامتي في المنزل موشكة على الانتهاء . فكرت ، عليّ أن أزور الأرملة مرة أخرى قبل المغادرة ، لذا استسلمت إلى إلحاحها .

عوض أن أعود إلى البيت من الجامعة ذهبت إلى محطة القطار . كان يوماً مروعاً قارص البرودة ، يتساقط فيه الثلج ويلفه الضباب . كان المكان الذي أقصده في آخر محطة على الخط ، لذا شعرت براحة البال ولم أفكر أن الاستفسار عن وقت الوصول يستحق العناء .

كانت منصات المحطات كلها على الجانب الأيمن . حجبت نفسي في مقعد في ركن من الجانب الأيمن وأخذت في قراءة كتاب . كان الظلام الدامس قد أرخى سدوله وأخفى كل شيء في الخارج . هبط الركاب واحداً بعد الآخر . وصلنا وغادرنا المحطة قبل الأخيرة . ثم وقف القطار مرة أخرى ، لكن لم يكن هناك أحد ولا أضواء ولا منصة ، إلا مسافر لا يملك الوسيلة ليتكهن لماذا تقف القطارات أحياناً في الأوقات والأماكن الخاطئة . لذا قررت أن استرسل في القراءة . بدأ القطار في الحركة إلى الخلف . قلت وأنا أعود إلى كتابي يبدو أن ليس هناك تفسير لغرابة أطوار السكك الحديدية . لكن حين عدنا إلى المحطة السابقة لم يعد بوسعي البقاء لابلالاً .

«متى سنصل إلى . . ؟» سألت مستفسراً .

«لقد جئت لتوك من هناك .» كان الجواب .

« إلى أين نحن ذاهبون الآن ، إذا؟» سألت باهتياج وارتباك .

«إلى لندن» عندئذ أدركت أن العربة مكوكية . عندما استفسرت عن موعد القطار التالي إلى ، قيل لي لاقطار الليلة . ورداً على سؤاله التالي علمت أن أقرب نزل يبعد خمسة أميال .

كنت قد غادرت البيت بعد الإفطار في العاشرة صباحاً ، ولم أتناول أي طعام منذ ذلك الحين . حين يغدو التقشف الخيار الوحيد ، يأتي التفكير الزاهد بيسر . أقفلت أزرار المعطف السميك حول رقبتني وجلست تحت أحد أضواء المنصة ورحت أقرأ ، كان الكتاب «معطيات علم الأخلاق» لسبنسر والمنشور حديثاً يوم ذاك . واسيت نفسي بأنني لن أحصل على مثل هذه الفرصة لأركز مخلصاً على هذا الموضوع .

بعد وقت قصير جاء حمّال وأخبرني أن قطاراً خاصاً قد يجهز في غضون نصف ساعة . سررت جداً للخبر لدرجة أنني أطبقت «معطيات علم الأخلاق» . أخيراً وصلت الساعة التاسعة عوض الساعة السابعة . «ما هذا يا روبي؟» سألت مضيفتي «ما الذي فعلته بنفسك؟» لم أقدر على الاقتحار بالقصة التي رويتها لها عن مغامراتي . كان العشاء قد انتهى ، رغم ذلك ، وحيث أن البلية لم تكن لخطأ ارتكبته ، لم أتوقع عقاباً مستحقاً ، خاصة من امرأة . كان كل ماقالته أرملة المسؤول الإنجليزي-الهندي الكبير «تفضل ، روبي ، إليك بكوب من الشاي» .

لم أكن يوماً محباً لشرب الشاي ، لكن على أمل أن يسكن جزئياً

عصافير بطني ابتلعت كوباً قوياً مع قطعتين من البسكويت الجاف .
أخيراً عندما وصلت إلى غرفة الجلوس وجدت جمعاً من السيدات
المسنات وبينهن شابة امريكية جميلة مخطوبة لابن أخ مضيفتي وتبدو
منهمكة بطقوس الحب المعهودة المتعلقة بفترة ما قبل الزواج .

«لنرقص قليلاً» قالت مضيفتي ، لم أكن في المزاج أو الحالة لفعل
ذلك غير أن الحلليم هو الذي يحقق ما يبدو مستحيلاً في هذا العالم .
بعد فترة وجيزة ، ورغم أن الرقص كان في المقام الأول من أجل
الخطيبين ، وجدت نفسي أرقص مع السيدات المسنات ، في حين
يفصلني عن المجاعة شاي ويسكويت .

إلا أن مأساتي لم تنته هنا . «أين ستقضي الليلة؟» سألت مضيفتي .
لم أكن مستعداً لهذا السؤال . حملت بها صامتاً وهي تشرح لي أن
من الأفضل أن أحمل نفسي دون جلبة إلى التزل المحلي حيث أنه يقفل
أبوابه عند منتصف الليل . لم يكن حسن الضيافة غائباً تماماً لأن خادماً
معه مصباح أوصلني إلى الفندق الصغير . في البدء قلت عسى أن
تكرهوا أمراً وهو خير لكم فاستفسرت في الحال عن الطعام لحم أو
سمك أو خضار ، حاراً بارداً ، أي شيء ، قيل لي أن بإمكانني الحصول
على المشروبات لا الطعام . حين تطلعت إلى النوم لأتسى مصابي لم
أجد عزاء في كنفه الحنون- كانت أرضية حجرتي من الحجر الرملي
البارد كالجليد ، وكل ما فيها من الأثاث مجرد هيكل سرير ومغسلة .

في الصباح دعنتي الأرملة للإنطار . وجدت طعاماً بارداً ممدوداً ، من

الجلبي أنه بقايا عشاء الليلة الماضية . لو قدم لي منه قليل ، فاطر أو بارد ،
الليلة الماضية لما أضر ذلك أحداً ، ولما جعل رقصي مثل سمك الشبوط
الذي يحتضر ويتلوى خارج الماء .

بعد الإفطار أبلغتني مضيفتي أن السيدة التي دعيت لأغني لها مريضة
طريحة الفراش ، وأن عليّ أن أغني لها من خلف باب حجرة نومها .
وقفت في أسفل الدرج ، وأشارت الأرملة إلى باب موحد ، «إنها هنا»
غنيت تلك الترنيمة وأنا أواجه المجهول الغامض في الجهة الأخرى . لم
أسمع شيئاً عن مصير المقعدة بعد ذلك .

هجمعت في الفراش حين وصلت إلى لندن لأكفر عن نتائج كيامتي
الحمقاء . ناشدتني بنات الدكتور سكوت بضميري أن لا أخلد ذلك
كمثال للضيافة الإنجليزية . كان ذلك بالتأكيد تأثير التحفظ الهندي .

لوكين باليت

كان لوكين باليت زميلي في الفصل حين كنت أحضر محاضرات الأدب الإنجليزي في الجامعة ، كان يصغرني بحوالي أربع سنوات . في العمر الذي أكتب فيه هذه الذكريات ، لا يشكل فرق أربع سنوات أهمية ، لكن يصعب على الصداقة تجاوز الفرق بين السابعة عشرة والثالثة عشرة . في هذه الحالة يتوق الولد الأكبر دائماً للحفاظ على وقار الأرشدية ، لكن مع لوكين لم يضع ذلك حاجزاً في ذهني ، ذلك لأنني لم اعتبره بأي حال أدنى مني .

كان الطلاب والطالبات يدرسون معاً في مكتبة الكلية التي كانت مكان لقائنا وجهاً لوجه . لو توخينا الهدوء في مسارنا لما شكا أحد ، لكن صديقي اليافع كان مشبعاً بالبهجة التي تنفجر بضحكة لأقل بادرة تمريض . للفتيات في كل البلاد درجة من الانكباب الخاطيء في دراستهن ، أشعر بالندم حين أستعيد ذكرى تأنيب العيون الزرقاء العديدة التي أمطرتنا بالاستهجان على صخب مرحنا دون جدوى ، لم يكن عندي أدنى تعاطف آنئذ إزاء الألم الذي يسببه إزعاج الدراسة .

بنعمة الله لم أصب لا بصداق ولا وخز ضمير في حياتي إطلاقاً بسبب قطع استمرارية دراستي المدرسية .

كانت لنا مع ضحكنا الدائم تقريباً بعض المناقشات الأدبية ، ورغم أن اطلاع لوكين على الأدب البنغالي كان أقل من اطلاعي ، إلا أنه عوّض عنه بذكائه المتقدم . كان علم الإملاء البنغالي من المواضيع التي ناقشناها . ما أثار الموضوع أن إحدى بنات الدكتور سكوت طلبت مني تدريسها البنغالية . عندما بدأت بالحروف الأبجدية ، عبرت عن فخري لكون التهجئة البنغالية تلتزم بما يمليه العقل ولا تبتهج لتجاوز القوانين عند كل منعطف . وضحت لها لولا حشر التهجئة الإنجليزية المأساوي في الامتحانات لكانت مضحكة لصعوبة مراسها وتقلبها . لكن اعتزازي تداعى عندما ظهر أن التهجئة البنغالية تماثل إلى حد بعيد الإنجليزية في ضيق تحملها للقيود . لقد أعمتني قوة العادة من رؤية انتهاكاتها . شرعت في البحث عن القوانين لتنظيم انعدام قوانينها . دهشت للمساعدة الرائعة التي قدمها لوكين .

بعد أن انضم إلى الإدارة المدنية الهندية ورجع للوطن ، جرى العمل الذي بدأه في مكتبة الجامعة بمرح يتفرق كخبر الماء ، مناسباً كجدول عريض . كانت بهجة لوكين العاصفة في الأدب كالريح في شراع مغامرتي الأدبية . كنت في أوج الشباب أقود ثري وشعري كدراجة هوائية ذات مقعدين بمعدل سرعة عالية . حافظ إعجاب لوكين الذي لاحصر له على طاقاتي من الوهن لفترة . كثير من تجليات الخيال

الرائعة بدأت في بيته الريفي الثاني . وفي مناسبات عديدة كنا نجتمع
في لقاءات أدبية وموسيقية تحت رعاية نجم المساء ونفترق أخيراً تحت
نجم الصباح كالمصاييح في نسيم السحر .

من بين زهور اللوتس الكثيرة التي تزين أقدام الإلهة ساراسواتي لا بد
أن لوتس الصداقة هي زهرتها المفضلة . لم يحالفني الحظ لأستمتع
بكثير من لقاحها الذهبي ، لكن ليس بوسعي الشكوى من ندرة شذى
الصداقة الجيدة .

القلب المحطم

بدأت في نظم قصيدة أخرى عندما كنت في إنجلترا ، واستمرت في كتابتها خلال رحلتي إلى الوطن ، وأنهيتها بعد عودتي . نشرت القصيدة تحت عنوان «القلب المحطم» حسب في ذلك الوقت أنها جيدة . قد تظن أن ليس في ذلك غرابة ، غير أنها حازت على إعجاب قراء أيضاً . أذكر كيف ، بعد أن نشرت ، عرج عليّ الممثل الأول للمرحوم راجاتيبيورا لينقل لي رسالة فحواها أن الراجا أعجب بالقصيدة ويعلق أمالاً كبيرة على مستقبل كاتبها الأدبي . دعني أدوّن هنا ما كتبت حول هذه القصيدة التي كتبتها في الثامنة عشرة في رسالة حين بلغت الثلاثين :

كنت عندما بدأت في كتابة «القلب المحطم» في الثامنة عشرة - لاولداً ولا شاباً . لا يضاء هذا العمر الواقع على تخوم مرحلتين بالأشعة المباشرة للحقيقة ، منتشرأ هنا وهناك والباقي في الظل . تخيلاته مطوّلة مبهمة مثل ظلال الشفق وتجعل العالم الواقعي يبدو كالحلم . ليس الغريب أنني كنت في الثامنة عشرة ، لكن كل من حولي كان يبدو في

الثامنة عشرة أيضاً . كنا جميعاً نطوف من مكان إلى آخر بسرعة في نفس عالم الحلم عديم الجوهر والأساس ، حيث تبدو أكثر الأفراح والأحزان شدة وهماً . لم يكن هناك معياراً حقيقياً لتزن به ، هل المبتذل في مقام العظيم .

كانت هذه الفترة من حياتي الواقعة بين سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة والحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين ، فترة فوضى عارمة . في أوائل حياة الأرض ، قبل أن تفصل اليابسة عن الماء تماماً ، كانت الحيوانات البرمائية العملاقة تحبب الأدغال عديمة الشجر التي ازدهرت في السبخات البدائية . انفعالات العقل غير الناضج ، الدوامه ممائلة مشوهة ومتفخخة ، وتنتاب قفار العقل عديم الاسم والأثر ، إنها تجهل ماهيتها ولماذا تطوف ، لهذا السبب تميل إلى التنكر البيئي الغروتسك الغريب ، بالنسبة لي ، كان عمراً لنشاط عديم المعنى حيث تتصادم قدراتي النامية اللاواعية وغير المساوية لأهدافها الحقيقية مع بعضها البعض لتجد مخرجاً ، وتشوف كلها لتأكيد تفوقها بالغلو .

حين تحاول أسنان الحليب أن تشق طريقها عبر اللثة تسبب للطفل الحمى . ليس للتهيج من تبرير ظواهر حتى تظهر الأسنان وتبدأ في المساعدة على تناول الطعام . تعذب انفعالاتنا المبكرة العقل بنفس الأسلوب ، مثل الأمراض ، حتى تحقق علاقاتها الحقيقية مع العالم .

توجد الدروس التي تعلمتها من تجربتي في ذلك الوقت في كل كتب الأخلاق المدرسية ، لذا لا يجب الاستخفاف بها . يسمم حياتنا كل ما

من شأنه أن يجبس حوافزنا في قلوبنا ويكبح حرية انطلاقتها للخارج ،
ترفض الأثنية مثلاً ، السماح لرغباتنا بحرية العمل وتمنعها من إحراز
مكانتها ، لذا يقبح قرينها المقرب دائماً بالزيف . حين تسنح فرصة
لرغباتنا بالانطلاق في شكل عمل قيم ، يتبدد الضلال ويفرض ظرف
أكثر طبيعية نفسه ، هذه هي الحالة الحقيقية للطبيعة الإنسانية ، ومتعة
كوننا بشراً .

عز حالة فكري غير الناضجة التي وصفتها لتوي القدوة والمبدأ
الأخلاقي لذلك العصر ، ولست على يقين من زوال تأثيراتها .
تشرعني نظرة سريعة على تلك الحقبة أن الأدب الإنجليزي كان حافزاً
أكثر منه زاداً . كان شكسبير وملتون وبايرون آلهتنا في الأدب ، وقوة
الانفعال أكثر ما أثارنا في أعمالهم . يكبح هيجان العواطف بضرارة في
الحياة الاجتماعية الإنجليزية ، ولعل هذا يفسر سبب سيطرتها على
الأدب الإنجليزي الذي يتصف بقمع المشاعر المتقدة لدرجة الانفجار
المحتم . هذا على الأقل ما اعتبرناه في البنغال جوهر الأدب الإنجليزي .
كان في خطبة أكشاي شودهوري العنيفة حول الشعر الإنجليزي التي
فتحت الباب لنا على الأدب الإنجليزي جموح الثمل . أثار إعجابنا
حب روميو وجوليت المسعور ، وغضب التفجع الواهن للملك لير ،
ونار غيرة عطيل الحارقة . كانت حياتنا الاجتماعية الصارمة بمجال
نشاطها الضيق محصورة بالرتابة لحد لم نجد الشاعر العاصفة معه
مدخلاً ؛ كان كل شيء في غاية الهدوء والسكون . لذا كان من

الطبيعي أن تتوق قلوبنا لصدمة العاطفة التي تبعث الحياة في الأدب
الانجليزي . لم تكن هذه متعة جمالية ، بل ترحيباً حاراً بموجة هائجة ،
حتى ولو جلبت للسطح وحل القعر الراكد .

في الوقت الذي استفز فيه قمع القلب الإنساني أخيراً رد الفعل
المعروف بعصر النهضة في أوروبا ، كانت مسرحيات شكسبير المعادل
لرقصات الحرب . لم تكن اعتبارات الخير والشر والجمال والقبح
هاجسها الأساسي .

عوض ذلك ، استهلك القلق الإنسان ودفعه لتحطيم كل الحواجز
وأعمق مقدسات وجوده ليكتشف صورة جوهرية مطلقة لأكثر رغباته
عنفاً . يعلل هذه الخشونة والغزارة والعبث المسرف في الشهوانية الذي
لنجد عند شكسبير .

وجد المرح الصاحب المعريد هذا سبيلاً إلى عالمنا الاجتماعي الرزين
جيد الخلق ، فأيقظنا وبعث فينا الحياة . تتطلع أفئدتنا ، التي أخدمتها
الطقوس إلى فرصة للعيش ، ونحن مبهورون بالأفق الطليق الذي
تبدى لنا . شيء مماثل حدث في الأدب الإنجليزي ، عندما حل إيقاع
الثورة الفرنسية الراقص مكان الرقص البطيء لعصر بوب العادي .
كان بيرون شاعره ، وشق عنف اندفاعه الحجاب الذي حفظ قلوبنا في
عزلة عذرية .

على هذا النحو ، سيطر السعي وراء الأدب الإنجليزي على شباب
عصرنا وأنا من بينهم . استمرت الأمواج المتكسرة للإثارة في لطمي من

كل الأطراف . كانت اليقظة الأولى هذه وقتاً لإذكاء النار لا القمع . مع ذلك كانت حالتنا مختلفة جداً عن أوروبا . هناك ، كانت سرعة الاحتياج وضيق الصدر بالقيود انعكاساً للتاريخ في الأدب . كانت كشفاً أصيلاً للمشاعر . سمع هدير العاصفة ، لأن عاصفة حقيقية كانت ناثرة ، لكن ما أن وصلت عالمنا حتى غدت أكثر بقليل من نسيم عليل . لقد فشلت في إرضاء عقولنا ، وقادتنا محاولتنا لتقليد انفجار إعصار إلى العاطفية بسهولة ، نزعة لا تزال مستمرة بإصرار ليس من السهولة شفاؤها .

المشكلة أن الأدب الإنجليزي هو أدب لم يظهر تحفظ الفن الحقيقي فيه بعد . لا يعدو كون الانفعال إلا أحد مقومات الأدب وليس خلاصته التي تقوم في التحصيل الأخير على البساطة والتحفظ ، لا يقر الأدب الإنجليزي هذا الافتراض تماماً .

تصاغ عقولنا ، من الطفولة إلى الشيخوخة ، بواسطة الأدب الإنجليزي فقط ، لكن آداب أوروبا الأخرى ، الكلاسيكية والمعاصرة ، التي أبدت تطوراً في ضبط النفس المنظوم ، ليست مواضيع دراستنا ، لذا يبدو لي ، أننا لا نزال عاجزين عن الوصول إلى إدراك صحيح للغاية والمنهج الحقيقيين للعمل الأدبي .

كان اكتشاي بابو ، الذي جعل انفعال الأدب الإنجليزي حياً لنا بنفسه نصيراً للحياة العاطفية . كان إدراك الحقيقة بالنسبة له ، أقل أهمية من الشعور بها في فؤاده . لم يكن له صلة فكرية بالدين ، إلا أن أغانيه

شاياما - الأم السوداء - كانت تملأ عينيه بالدموع . لم يشعر بضرورة للبحث عن الواقع المطلق ، كل ما يحرك شغاف قلبه كان في لحظته حقيقة ، حتى الفظاظة البديهة لم تكن رادعاً .

كان الإلحاد السمة المهيمنة على كتابات النثر الإنجليزي الرائجة حين ذاك - بينثام ، ميل ، كومت ، هم الكتاب المفضلون - كانت حججهم واستنتاجاتهم لغة نقاش شبابنا . يشكل عصر ميل عهداً طبيعياً في التاريخ الإنجليزي ، ويثقل ردة فعل صحية للأمة بوصفها وحدة سياسية خاضعة لحكومة . جاءت هذه القوى المدمرة ، مؤقتاً ، للتخلص من تراكم الأفكار الهراء . تبنت بلادنا آدابهم لا روحهم ، لم نسعَ لاستخدامها عملياً ، بل وظفناها فقط كحافز يحثنا على التمرد الأخلاقي . كان الإلحاد ، بالنسبة لنا ، مجرد سُكرٍ مسمم .

لهذه الأسباب انضوى الرجال المثقفون في فئتين رئيسيتين . الفئة الأولى تلقى بنفسها دائماً إلى الأمام بحجة غير استفزازية لتقطع كل إيمان بالله ، كصياد تستحكه يده لقتل مخلوق حي حالما يلمحه على شجرة . كان هؤلاء الناس كلما علموا بمعتقد غير مؤدٍ كامن في طمأنينة وهمية يشعرون بالإثارة للانقضاض عليه وتدميره . كان هذا لأحد مدرسينا انحرافاً محبباً . كنت مجرد ولد ، غير أنني لم أفلح في الهرب من هجماته الضارية . لم تكن إنجازاته مهمة ولا أفكاره حصيلة بحث دؤوب عن الحقيقة ، بل مجموعة أساساً من شفاء الآخرين . ورغم مقاومتي له بكل قواي ، إلا أنني لم أكن نداءً ، وعانيت كثيراً من

الهزائم المريرة . كنت أحياناً أشعر بجرح مشاعري وأوشك على البكاء .

الفئة الثانية ، لاتتألف من المؤمنين ، بل من أبيقوريي* الدين ، الذين وجدوا الراحة والسلوان في التجمع معاً والانغماس في المشاهد السارة والأصوات والروائح الوافرة تحت زِي الشعائر الدينية ، ويعيشون بترف في ممتلكات العبادة . لم يكن الشك أو الافكار ، في كلا الفئتين ، حصيلة مخاض وكد بحثهم .

رغم أن مثل هذا الضلال الديني آلمني ، فإني لا أدّعي بأنني لم أتأثر به إطلاقاً . تمردت بصفاقة الشباب الفكرية . لم أشارك في صلوات أسرتنا لأنني لم أتقبلها . شغلت نفسي بنفخ لهيب حوار عاطفي . كانت هذه مجرد نار تعبد ، تقديم القرايين لإذكاء اللهب ، دون أي غاية أخرى . كانت جهودي لآتعرف حداً لآنعدام هدف لها ، وتشوف دائماً للوصول إلى ماوراء أي قاعدة .

لم أشعر بأي حاجة لحقيقة تحتية في الدين وفي حياتي العاطفية؟ كانت الإثارة كل شيء . يستحضر هذا بعض الأبيات لشاعر من ذلك العصر :

قلبي ملكي

لم أبعه لأحد ،

* منسوب إلى فلسفة أبيقور الذي قال إن المتعة هي الخير الأسمى والفضيلة وحدها هي مصدر المتعة . فلسفة الإنغماس في الملذات الحسية . المترجم

ليكن بالياً ، ممزقاً ومثقلاً ،

قلبي ملكي .

في الحقيقة لا حاجة لأن يقلق القلب نفسه . ما من شيء يجبره على
ارتداء الأسماك البالية . لا يشتهي الأسى حقاً . لكن عندما يعزل عن
الحياة تغدو حدته ممتعة . بجل شعراؤنا ذلك مراراً ، غافلين الله الذي
يودون عبادته . هذه صبيانية لم تتخلص منها بلادنا بعد . لذا نفشل
اليوم في رؤية حقيقة الدين ونشغل أنفسنا عوض ذلك في إشباع
جمالنا . تماماً مثلما كثير من وطنيتنا ليست خدمة أصيلة للوطن الأم ،
بل إشباعاً عاطفياً بكل بساطة .

الموسيقى الأوروبية

ذهبت مرة عندما كنت في برايتون لسماع بريما دونا* لا أذكر اسمها .
لعلها مدام نيلسون أو مدام ألباني . لم أسمع من قبل مثل هذا التحكم
الرائع في الصوت . ليس بميسور أفضل مغنينا إخفاء حسهم بالجهد ولا
بالحياء من تقديم ، بكل ما في وسعهم ، النغمات العالية والمنخفضة
التي تتجاوز قدراتهم الصوتية . لا يمنع القسم المتفتح من سامعينا في
الحفاظ على الأداء الرفيع بفضل مخيلاتهم . وعليه لا يكثرثون لأي
خشونة في الصوت أو غرابة في الإيماءات من شارح لحن كامل البناء ،
على النقيض ، يعتقدون أحيانا أن مثل هذه النواقص الخارجية الطفيفة
أفضل لإبراز الكمال الداخلي للراجا ، مثل النقر الخارجي لزاهد
الماهدينا العظيم ، الذي يشع لاهوته من عريه .

هذا الإحساس مفقود في أوروبا ، حيث يتوجب أن تكون الزخرفة
الخارجية كاملة في كل صغيرة وكبيرة ، وأي عطب يسبب الخزي ويمنع
من مواجهة نظرة الجمهور . لا يعير صغير أو كبير في حفلاتنا الموسيقية

*المغنية الأولى في لويرا - للمترجم .

اهتماماً إذا مرت نصف ساعة في دوزنة أوتار التابنورا أو قرع الطبول .
 في أوروبا مثل هذه المهمات تحضر مسبقاً خلف الكواليس ، لأن ما
 يعرض على الجمهور يجب أن يكون بلا أخطاء . لا تسامح والتماس
 أعذار لأي ضعف في صوت المغني في بلادنا . الهدف الرئيسي هو
 عرض اللحن الصحيح والفني ، وكل الجهود تنصب على ذلك . في
 أوروبا الصوت هو هدف الثقافة ، ويقدمون عبره المستحيلات . يرضى
 خبيراؤنا المتمكنون من الفن إذا سمعوا الأغنية ، أما في أوروبا فيذهبون
 لسماع المغني .

كان ما رأيته في برايتون بجودة السيرك . أعجبت بالأداء لا بالأغنية .
 أحجمت عن الضحك بصعوبة حين قلد بعض حافظي الإيقاع تغريد
 الطيور . خالجنني شعور بأن في ذلك إساءة استعمال للصوت
 البشري . عندما جاء دور المغني شعرت بالانفراج . أحببت على وجه
 الخصوص أصوات التنور التي بها لحم ودم أكثر ، ولا تبدو مثل عويل
 أرواح بائسة محررة من الجسد .

بعد ذلك ، حين ثابرت على سماع وتعلم الموسيقى الأوروبية أكثر
 وأكثر ، بدأت في تفهم روحها . بيد أنني لا زلت مقتنعاً بأن موسيقانا
 وموسيقاهم تقطنان في شقق مختلفة ، ولا تجدان مدخلاً إلى القلب
 من نفس الباب . تتداخل الموسيقى الأوروبية والحياة المادية لأوروبا ،
 لذا قد يكون نص الأغاني متبايناً كالحياة نفسها . إذا حاولنا وضع
 أنغامنا على نفس اختلاف الاستعمالات تصبح مضحكة وتفقد

أهميتها ، لأن ألحاننا تتشوف للسمو بالحياة اليومية وطمسنا عميقاً في
الشفقة ، فهي رفيعة في تحفظها لتكشف صميم وجودنا . لا ينفذ إليها
وغير قابلة للوصف ، يجد فيها النصير المتحمس معتزله وحتى
الابيقوري جتته ، لكن لا مكان فيها لرجل الدنيا المشغول .

ليس بوسعي الادعاء أنني أحسست بروح الموسيقى الأوروبية لكن
القليل الذي فهمته من الخارج جذبني بشدة إليها . بدت لي في غاية
الرومانسية ، تحليل ما أعنيه بهذه الكلمة صعب نوعاً ما ، ما يجول
بفكري هو التنوع وفيض الأمواج في بحر الحياة ، ولعب الضوء والظل
الدائم فوق تموجاتها . ثمة وجه مناقض للامتداد اللامتناهي ، للسماء
الزرقاء التي لاثومض ، للتلميح الصامت الذي لاح له في دائرة الأفق
البعيدة ، ومع ذلك ، دعني أكرر ، خشية أن لا أكون كامل الوضوح
أنني كلما تأثرت بالموسيقى الأوروبية كنت أقول لنفسي : إنها رومانسية
وتترجم بالألحان اضمحلل الحياة .

لا يعني ذلك أننا نفتقر كلياً لنفس الهدف في بعض أشكال
موسيقانا ، إنها أقل وضوحاً وإنجازاً . تهب ألحاننا صوتاً للنجوم التي
ترصع بلمعانها الليل ، وللسماء المحمرة في أوائل السحر . إنها تتكلم
عن الأسى الطاغى الذي يسدل سواد سحب العاصفة والثمالة البكماء
للربيع الهائم في الغابة .

فالتيكي براتيبيها

كنا نملك مجلداً مزخرفاً بإسراف من كتاب مور «الأحان آيرلندية» كثيراً ما استمعت إلى إلقائها المبهج من قبل اكشاي بابو . تستحضر القصائد المشفوعة بتصميمات مصورة في الدهن حليماً لأيرلندا القديمة . لم أكن قد سمعت حين ذاك الأحان الأصلية ، غير أنني غنيتها لنفسي بمصاحبة القيثارات البادية في الصور . كنت أنطلع لسماع الأحان الأصلية وتعلمها وغنائها لأكشاي بابو . تحققت ، من سوء الحظ ، بعض هذه الأمنيات وماتت أثناء سير العملية . سمعت بعض هذه الأحان الأيرلندية وتعلمتها أيضاً حين ذهبت إلى إنجلترا ، الأمر الذي أدى لوضع حد لحماسي في إكمال تعلمها . كانت بسيطة وحزينة وحلوة عذبة ، لكنها لا تلائم لحن القيثارة الصامت الذي ملأ قاعات أيرلندا بأحلامي .

غنيت الأحان الأيرلندية التي تعلمتها لعائلتي عندما عدت للوطن ، «ماذا حدث لصوت رابي ؟ كم يبدو مضحكاً وأجنيباً؟» قالوا بتعجب . شعروا حتى بأنني أتكلم بشكل مختلف .

من هذا الخليط المذهب للألحان الأجنبية والمحلية ولدت فالميكى برايتيها «عبرية فالميكى». كانت معظم الألحان في هذه الدراما الموسيقية هندية ، غير أنها جردت من وقارها الكلاسيكي . ما حلق في السماء ، علّم كيف يجري على الأرض ، أنا على يقين أن من شاهدوها وسمعوا أداءها يشهدون بأن تسخير صيغ الألحان الهندية لخدمة الدراما لم يكن بلا طائل ولم يحط من قدرها . هذا التوحيد هو السمة الخاصة الوحيدة لفالميكى برايتيها . لقد استحوذت عليّ تماماً المهمة المفرحة لحل قيود الألحان وملاءمتها لمعالجات مختلفة .

وضعت بعض أغاني فالميكى برايتيها على ألحان ذات صيغ كلاسيكية جداً ، وبعضها من تأليف أخي جيوتيريندرا ، وقلة من مصادر أوروبية . سخر أسلوب صيغ تالينا الهندي بشكل خاص لأغراض درامية واستخدم مراراً في هذا العمل ، وكذلك لحنان أنجليزيان لأغاني شراب عصابات اللصوص ، ولحن آيرلندي من مراثيات حوريات الغابة .

ليست فالميكى برايتيها قطعة موسيقية تختمل القراءة . إذا لم تغنّ وتمثل تفقد أهميتها . هي دراما صغيرة على خلفية موسيقية ، وليست ما يدعوه الأوروبيون أوبرا ، بعبارة أخرى ، هي ليست في المقام الأول قطعة موسيقية ، تخدم الأغاني القليلة ، المهمة أو الجذابة ، كنص موسيقي للمسرحية ليس إلا .

قبل ذهابي إلى إنجلترا ، كنا نقيم في بيتنا من حين لآخر تجمعات

لرجاللات الأدب تعزف فيها الموسيقى وتلقى الأشعار وتقدم المربطبات الخفيفة . بعد رجوعي أقيمت آخر حفلة . كتبت فالميكي براتييه من أجلها . أديت دور فالميكي وقام ابن أخي براتييه بدور ساراسواتي . كانت قليلاً من التاريخ مدوناً باسم الدراما .

قرأت في كتاب لهربرت سبنسر أن الكلام يأخذ انعطافات موسيقية كلما ظهرت العاطفة . صحيح أن النغمة واللحن مهمان كالكلمة المنطوقة للتعبير عن الغضب والحزن والفرح والتعجب . راقى لي فكرة سبنسر القائلة إن الإنسان وجد الموسيقى عبر تطور هذه التغيرات العاطفية في طبقات الصوت . لم لا أحاول تمثيل دراما بطريقة إلقاء ملحن تقوم على هذه الفكرة؟ إلى حد ما ، حاول شعراؤنا المهليون فعل ذلك ، لأنهم كثيراً ما أدخلوا ترنيمة لا تصل إلى صيغة اللحن التام . كما الشعر المرسل أكثر طواعية من المقفى ، كذلك الترانيم ، رغم عدم خلوها من الإيقاع ، يمكن أن تطوع نفسها بحرية للتفسير العاطفي للنص ، لأنها لا تطمح لمطابقة القوانين الصارمة الخاصة باللحن والوقت الذي يتطلبه تأليف اللحن العادي . لما كان الهدف هو التعبير عن المشاعر لذا لا تسبب نواقص الشكل إزعاجاً للمستمع .

شعمني نجاح هذا الخط الجديد في فالميكي براتييه لتأليف مسرحية موسيقية أخرى على نفس النمط ، تدعى كال مريجايا «الصبيد المقدر المشؤوم» . يقوم الموضوع على قصة من الرامايانا حول مقتل ابن الكاهن الأعمى الوحيد بالصدفة من قبل الملك داشاراتا . مثلت على

مسرح نصب على سطح بيتنا ، وبدأ أن عناصرها المثيرة للشفقة قد أثرت على المتفرجين بعمق . بعد ذلك ومع بعض التغييرات الطفيفة ، دمج معظمها في فاليكي براتيهيا ، وتوقف نشر المسرحية منفصلة في أعماله المنشورة .

بعد فترة طويلة كتبت مسرحية موسيقية ثالثة تدعى «مايار كيلا» أويرتا من نمط مختلف . كانت الأغاني فيها مهمة وليس الدراما . في العملين الأخيرين مزجت اللحن بسلسلة من المواقف الدرامية ؛ هنا خلطت مختارات من الأغاني مع أقل قدر ممكن من المواضيع . كان عرض المشاعر لا الحركة سمتها الأساسية ، كنت مشبعاً بأجواء الأغنية وأنا أكتبها .

لم أشعر بمثل الحيوية التي غمرتني أثناء تحقيق فاليكي براتيهيا ، وكال مريجايا في أي عمل آخر من أعماله . عبّر هذان العمالان عن الهياج الموسيقي لذلك العصر .

انهماك أخي جيوتيرنيدرا بالعزف على البيانو طوال اليوم ليجدد صيغ الألحان الكلاسيكية كما يرتأي . في كل دورة لأكتب ، كانت الأنماط القديمة تأخذ أشكالا لم تعظم على بال ، وتعبّر درجات جديدة من المشاعر . قدمت صيغ الألحان التي روّضت لتخطو بمشيتها الجلييلة الأصيلة ، بعدما أجبرت على السير وفق أوزان غير تقليدية وأكثر حيوية ، برشاقة وقوة غير متوقعة وأثرت بنا أيضاً . كان بميسورنا سماع الألحان وهي تخاطبنا بوضوح ، في حين جلست وأكشاي بابو على

جانيه نلثم الكلمات للألحان المناسبة من أنامل أخي الرشيقه . لا ادعي أن نص الأويرا كان شعراً جيداً ، لكنه صلح كوعاء للألحان .

في المرح الثوري الصاحب الذي كتبت فيه هاتين المسرحيتين الموسيقيتين ، رقصوا بسعادة على كل وزن موسيقي دون اعتبار لكونه صحيحاً من الناحية التقنية أم لا ، غير مباليين أكانت الألحان محلية أم أجنبية .

أبدى جمهور القراء البنغاليين المهتم ، في أكثر من مناسبة ، إزاء بعض أفكاره وصيغتي الأدبية . لكن من الغريب أن القوضى الجريئة التي قمت بها ضمن الأفكار الموسيقية المقبولة لم تثر أي امتعاض ، بل على النقيض رجع كل من استمع إليها مسروراً . وجدت بعض قطع اكشاي بابو الموسيقية مكاناً لها في فالميكسي براتييهها ، مع اقتباس سلسلة من أغاني بهاري شاكرا فارتي «ساروا ماتالجال» .

كنت أقوم بأداء الدور الرئيسي في تمثيل هذه المسرحيات الموسيقية لولعي بالتمثيل منذ نعومة أظفاري . اعتقد جازماً بأنني أتحدى بقابلية خاصة تجاهه ، وأظن أنني برهنت أن اعتقادي له أساس من الصحة . كان الدور الأول الذي قمت بأدائه دور اليك بابو في مسرحية ساخرة كتبها أخي جيوتير نيدرا . كنت يومها صغيراً ولا شيء يتعب أو يزعج صوتي .

كان في بيتنا حين ذاك شلال من العاطفة الموسيقية يتدفق يوماً إثر يوم ، وساعة تلو ساعة ، ينشر رذاذه في وجودنا على شكل سلسلة

كاملة من الاكوان . انطلقنا بيفاعة الشباب وطاقتة المدفوعة بفضول حديث الولادة ، في طرقات بكل الاتجاهات . أردنا محاولة كل شيء وشعرنا أن ما من شيء يستحيل إنجازه . كتبنا وغنينا ومثلنا ، واغدقنا بأنفسنا في كل صوب . هكذا خطوت في سستي العشرين .

كان أخي جيوثيريندرا من بين القوى الدافعة لحياتنا قدماً بظفر ، وقائد العربة الذي لا يعرف الخوف مطلقاً . مرة ، حين كنت مجرد غلام لم يمتط صهوة جواد من قبل ، أركبني على حصان وراح يعدو بجانبه . في نفس العمر عندما كنا في شيليداه - مركز أحلامنا- ووصل خبر عن وجود ثمر ، أخذني معه في حملة الصيد . لم يكن بحوزتي بندقية ، ولو كانت معي لكأنت أخطر عليّ من النمر . تركنا أحذيتنا على حافة الغابة وزحفنا حافيين الأقدام .

أخيراً وصلنا أيكه بامبو عارية جزئياً من أغصانها الشبيهة بالشوك حيث جثمت خلف أخي حتى ألحزت المهمة ، دون وسيلة لعقاب الوحش الفظ ولا حتى ضربه بحذاء لو جرؤ على وضع مخلبه الأثم عليّ .

هكذا ، منحني أخي حرية كاملة في الداخل والخارج لمواجهة كل المخاطر ، لم تمتعه عادات ولا أعراف ، وبهذا استطاع أن يخلصني من حياتي الاطوائي .

أغاني المساء

في حالة الانهماك في الشؤون الذاتية التي تحدث عنها ، كتبت عدداً من القصائد التي جمعت معاً تحت عنوان هريدي أراينا -قفر القلب- في طبعة موهيت بابو من أعماله . في إحدى القصائد التي نشرت فيما بعد في مجلد يدعى برايهات سانجيت -أغاني الصباح- وردت الأبيات التالية :

ثمة قفر فسيح اسمه القلب

أغصان غابته المتشابكة تؤرجح وتراقص الظلمة بدلالٍ كطفلٍ ،

في أعماقه ، أضعت سبيلي .

اشتق اسم مجموعة هذه القصائد من هذه الأغاني .

حذف من هذه النسخة كثير مما كتبت ، عندما لم يكن لي صلة بالخارج وحين كنت مستغرقاً في تأملات قلبي الخاصة وسرحت خيالاتي متخفية في عواطف لامبرر لها وأشواق دون غاية . أعيد نشر بعض القصائد التي نشرت في الأصل في مجلد يدعى ساندهيا سانجيت -أغاني المساء- في الجزء المسمى «قفر القلب» .

سافر أخي جيوتيريندرا مع زوجته في رحلة طويلة ، فأصبحت حجرهم في الطابق الثالث المواجه لشرفة السطح شاغرة . انتقلت إليها ورحت أقضي أيامي في عزلة أناجي روحي ، ولا أدري كيف لم انزلق في أخذود الشعر الذي وقعت فيه من قبل . ربما حرّرت نفسي بشكل طبيعي حين ابتعدت عن سعيّ لإرضائهم وعمّن صاغ ذوقهم في الشعر ، الشكل الذي حاولت فيه صب أفكارِي .

ساعد في تحريري استعمالِي لوحاً للكتابة . أزعجتني الدفاتر التي كنت أكتب فيها لأن تدوين شيء فيها يتطلب زاداً من الخيال الشعري يرنو إلى بلوغ مرتبة الشعراء المعروفين . من الواضح أن الكتابة على لوح مسألة نفسية مؤقتة ، كأنها تقول «لا تخف ، اكتب ماتريده فقط ، حكمة واحدة تمحو كل ما كتبت» .

كتبت قصيدة أو اثنتين دون قيود ، شعرت في داخلي بمتعة حقيقية «أخيراً» قال قلبي «ما أكتبه هو ملكي» . لا يتوجب على أحد أن يظن أن هذا اعتداد بالنفس . لقد شعرت بالفخر حيال أعمالي السابقة وهذا كل ما منحتها من ثناء . أرفض دعوة البداية المفاجئة للثقة بالنفس إشباع غرور . لا يعود سرور الآباء بمولودهم الأول إلى الفخر بقدمه ، بل لأنه ملكهم إذا حدث وأن أصبح الطفل خارقاً ، يمكن لهم الاعتزاز بذلك ، لكن هذه مسألة أخرى .

لم أبال في الفيض الأول لهذه الفرصة بقيود الأوزان ، تماماً كما لا يجري الجدول بخط مستقيم ، بل يشق طريقه متلوياً أو متمعجاً كما

يهوى ، كانت أشعاري . كنت أعتبر ذلك في السابق جريمة ، والآن لا أشعر بالندم ، في البدء تحطم الحرية القيود ، ومن ثم تسنّ القوانين التي تضعها تحت الحكم الذاتي الحقيقي .

كان المستمع الوحيد لهذه الكتابات الغريبة الضالة هو اكشاي بابو ، دهش حين سمعها أول مرة بقدر ما سرته . وسع استحسانه درب حريتي .

كانت قصائد بهاري شاكرافاثي تخضع لنظام الأوزان الثلاثة الذي يقدم تأثيراً عالمياً على عكس مضاعفة الأوزان الثنائية . يجري النظام هذا بيسر وينسل بسلاسة كما لو أنه يرقص على رنين خلخالها . كنت حيناً مولعاً بهذا الوزن الذي يشعرك بقيادة دراجة هوائية أكثر من كونك سائراً على قدميك ، وعلى خطواته الواسعة تعودت . في «أغاني المساء» كسرت هذه القيود دون تفكير ، ودون الوقوع تحت نفوذ أي سلطان آخر . أحسست بالحرية الكاملة وعدم الاكتراث ، ولم أخشَ أو أفكر بالتوبيخ .

قادتني القوة التي حصلت عليها بالعمل بعيداً عن شبك التقاليد إلى اكتشاف أنني كنت أبحث في أماكن مستحيلة عن شيء هو في الواقع في داخلي . لم يقف حجر عثرة في طريق أن أصبح نفسي سوى نقص الثقة الذاتية ، أحسست كما لو أنني أستيقظت من كابوس لأجد نفسي متحرراً من الأصفاد . تصرفت بحماقة كي أتأكد أنني حرّ الحركة . بالنسبة لي هذه هي أكثر فترة جديرة بالذكر في حياتي

الشعرية . ربما ليس «الأغاني المساء» قيمة كبيرة كقصائد . في الواقع
هي غير ناضجة وغير متقنة ولم يأخذ لا وزنها ولا لغتها ولا فكرها
شكلاً محدداً . لكن للمرة الأولى كتبت ما أردته حقاً ، تماماً كما
أحسست . حتى لو لم يكن لها قيمة خالدة فإن المتعة لا ريب باقية .

مقالة في الموسيقى

كنت أعتزم دراسة القانون عندما استدعاني أبي من إنجلترا . ضغط بعض الأصدقاء القلقين على مستقبلي المهني بسبب هذا الانقطاع على أبي لإعادتي إلى هناك . أدى هذا لشروعي في رحلة ثانية إلى إنجلترا ، هذه المرة مع قريب كمرافق . إلا أن قدرتي أبي بقوة أن أصبح محامياً لحد لم أصل فيه هذه المرة حتى إلى إنجلترا .

هبطنا في مدراس وعدنا إلى كلكتا . لم يكن السبب بأهمية وخطورة القرار ، لكن حيث أن السخرية لم تكن بسببي ، سأحجم عن ذكرها ، هكذا فشلت رحلات حجبي إلى مقام لاكشمي ، إلهة الثروة . أتمنى أن ينظر إلي إله القانون . على الأقل ، بعين الرضا لأني لم أضف معوقات مبنى مكتبة القانون .

كان والدي آتئذ في تلال موسوري . ذهبت إليه وأنا أرتعش رهبة . بدا مسروراً دون أي علامات سخط . لا بد أنه رأى في عودتي نعمة من العناية الإلهية .

ألقيت في المساء الذي سبق بداية رحلتي بحثاً في قاعة كلية الطب

بناء على دعوة من جمعية بيثون . كانت هذه قراءتي الأولى أمام الجمهور . كان الكاهن ك . م . بانيرجي هو الرئيس ، والموضوع هو الموسيقى . بالتغاضي عن موسيقى الآلات ، حاولت أن أبرهن أن الهدف الأساسي لموسيقى الصوت هو إظهار ماتريد الكلمات التعبير عنه بشكل أفضل . كان نص بحثي قصيراً ، لذا غنيت ومثلت الأغاني بالتفصيل لأوضح موضوعي . لا بد أن الإطراء الذي شملني به الرئيس في النهاية يعود إلى تأثير صوتي اليافع المصحوب بالجدية وتنوع محاولته . أقر الآن أن الفكرة التي ناديت بها بحماس كانت خاطئة .

تتصف موسيقى الصوت بسماتها الخاصة ، وحين يصحبها الكلام عليه أن لا يتجرأ كثيراً على اللحن الذي هي بالنسبة له مجرد وعاء أو تسعى لتركه إذا كانت الأغنية عظيمة في حد ذاتها ، فلم عليها خدمة الكلمات؟ يبدأ اللحن حيث تفشل حدود الكلمات ، وتكمن قوته في المنطقة التي لا تقبل الوصف ، ويوبح لنا بما تعجز عنه الكلمات .

وعليه تكون الأغنية أفضل كلما كانت محملة بكلمات أقل . ليس للكلمات في الأسلوب الكلاسيكي الهندستاني أهمية ، كما يترك اللحن يخلق قابليته على طريقته الخاصة . تحقق موسيقى الصوت الكمال عندما يتسنى لأداء اللحن التطور بحرية ، والسمو بوعينا إلى مستواه الرفيع . في البنغال فرضت الكلمات نفسها دائماً بقوة مما جعل الأغاني تفشل في تطوير ملكاتها الموسيقية بشكل كامل ، وبقيت راضية في أن تكون خادمة للشعر . من أغاني فيشنافا القديمة وإلى

أغاني نيدهو بابو ، قدمت الأغاني البنغالية سحرها عبر الخلفية فقط .
 عليها أن تقتدي بالزوجات في بلدنا اللاتي يطنن أزواجهن صورياً ،
 وفي الواقع يحكمهم ؛ الموسيقى التي تخدم الكلمات في العلن ،
 يجب في الواقع أن تسيطر عليها . أحسست بذلك مراراً وأنا أكتب
 الأغاني . كتبت وأنا أهمهم لنفسي هذه الأبيات :

لا تحفظ شرك لنفسك ، يا حبيبي

بل أهمسه لي برفق ، لي فقط

وجدت أن الكلمات في حد ذاتها لا تملك الوسائل للوصول إلى
 المنطقة التي يتفوق فيها اللحن . أنبأني اللحن أن السر الذي كنت ألح
 على سماعه قد امتزج مع الغموض الأخضر لقطع الأرض الجرداء من
 الأشجار في الغابة ، وانغمس في صفاء البياض الصامت لليليالي
 المقمرة ، ويتلصص من خلف حجاب الزرقة اللامتناهية في الأفق ،
 وهو أكثر أسرار الأرض والسماء والمياه حميمية .

سمعت في طفولتي المبكرة مقطوعاً من أغنية :

من ألبسك ، يا حبيبي ، كأجنبية ؟

رسم هذا البيت وحده صوراً رائعة في ذهني لا تزال تستحوذ عليّ
 للآن . جلست يوماً أكتب كلمات لأحد ألحاني وأنا مشبع بهذا البيت
 من الأغنية . كتبت وأنا أهمهم لحين تكلمة للبيت ؛

أعرفك ، أيتها المرأة من الأراضي الغريبة !

بيتك وراء البحر .

لو لم يكن اللحن موجوداً ، لما عرفت كيف سيكون شكل باقي القصيدة ، لكنها كشفت لي ، كما أتت ، الغريب في جمالها أنها هي ، قالت روحي ، التي تأتي وتذهب ، رسولة إلى هذا العالم من الشاطئ الآخر لمحيط القموض . إنها هي التي تلمحها من حين لآخر في صباحات الخريف الندية ، وفي ليالي الربيع الشدية ، في أعماق قلوبنا ، وأحياناً نجهد أنفسنا كثيراً لسماعها . إلى باب هذه الغريبة الفاتنة ساقني اللحن ، وإليها موجه ما تبقى من كلماتي .

بعد ذلك بوقت طويل ، وفي شارع في بولبور ، كان متسول من البول* يسير وهو يغني : كيف يقفز الطير المجهول من وإلى القفص ! آه ، لو صدته ، لطوقت أقدامه بحبي !

وجدت هذا المتسول يردد ما تقوله أغنيتي . يقيم الطير المجهول في القفص أحياناً ، ويهمس بأنباء العالم اللامحدود خارج أسلاك القفص ، ويشتهي القلب بشغف أن يمسك بالمصفور إلى الأبد ، لكنه يعجز . هل بمقدور شيء غير اللحن أن يشي لنا بمجيء وذهاب الطير المجهول ؟ !

يفسر هذا معارضتي الدائمة لنشر كلمات أغنيتي ، لأن الروح ستكون معدومة لامحالة .

* راجع شرح المفردات في نهاية الكتاب .

قرب النهر

يوم عدت من بداية رحلتي الثانية إلى إنجلترا ، كان أخي جيوتير يندرا وزوجته يعيشان في دارة قرب النهر في شاندانناجار ، حيث ذهبت لأمكث معهم .

نهر الجانجز ثمانية أمتار تلك الأيام والليالي التي لا توصف مرة أخرى ، مضمنة في مرحها ، مثيرة في شوقها ، متناغمة مع خرير ماء النهر تحت فيء ضفافها المشجرة . هذه السماء البنغالية بنورها الوضيء ، والنسيم الجنوبي وجريان النهر ، هذا الخمول الفخم الحقيقي الممتد في مدى الأفق من الأرض الخضراء إلى السماء الزرقاء ، كلها كانت كالطعام والشراب للجائع والظامي . حقاً ، كان المكان كالبيت ، وهذه الهبات الطبيعية كالأم .

لا أتكلم عن وقت بعيد ، إلا أن الزمن قد غير الكثير . حلت مكان استراحتنا الصغيرة قرب النهر المحمية بالنبات الأخضر طواحين هواء مثل التين رافعة رؤوسها المهسهسة عالياً في كل مكان وهي تقذف الدخان الأسود . في وهج منتصف نهار الحياة العصرية ، ضاقت حتى

ساعات قيلولتنا العقلية إلى أدنى الحدود ، وغزا قلبي حيوان الهدرة*
 ذي الرؤوس كل شعاب الحياة . لعل هذا للأفضل ، غير أنني لا أقدر
 على اعتباره كامل الجودة .

مرت أيامي هذه قرب النهر مثل براعم اللوتس المقدسة العائمة في
 الجدول المقدس . قضيت بعض أوقات ما بعد الظهيرة الماطرة في نوبة
 جنون حقيقية أشدو بأغاني فيشنافا القديمة على ألحاني بمصاحبة
 الأرغن . في أوقات أخرى ، كنا نبحر برفق في قارب وأخني
 جيوتيريندرا يعزف على الكمان وأنا أغني . كنا نبدأ بغناء راجابورافي
 ونستمر في غناء تنوعات الراجا مع انصرام النهار ، ونشاهد حين
 نصل إلى راجايهاج ، السماء الغربية وقد أسدلت مصراع النوافذ على
 مخزن ألعابها الذهبي ويزغ القمر في الشرق . من ثم نجذف عائدين
 إلى درجات الدارة . ونجلس على لحاف مبسوط على السطح المقابل
 للنهر . في غضون ذلك يخيم السلام الفضي على الأرض والماء ،
 ونادراً ما نشاهد القوارب وذوئب الأشجار على الضفة في ظل قائم ،
 وضوء القمر يتلألأ على انسياب التيار الناعم .

كانت الدارة التي نقيم فيها تعرف باسم مورانز جاردن . تقود
 مجموعة درجات حجرية من الماء إلى شرفة طويلة واسعة تشكل جزءاً
 من البيت . لم تكن الغرف مرتبة بانتظام وليست جميعاً على نفس

* الهدرة : حيوان خرافي ذو تسعة رؤوس قتله هرقل ، فكان كلما قطع رأساً من رؤوسه هذه نبت
 محله رأسان جديدان . (الترجم)

المستوى ، لذا موصل بعضها بدرجات قليلة . كان لغرفة الجلوس الكبيرة المطلّة على الدرجات المؤدية إلى النهر نوافذ زجاجية مصبوغة بصور ملونة .

كانت إحدى الصور لأرجوحة مدلاة من غصن نصفه مغطى بأوراق الشجر الكثيفة ، وفي الضوء والظل مختلف الألوان ، يتأرجح في هذه التعريشة شخصان ، وثمة صورة أخرى لدرجات كبيرة تقود إلى قصر يشبه القلاع ، عليها رجال ونساء يرتدون زي الاحتفالات ، صاعدين وهابطين ، حين يحط النور على النوافذ ، تشع هذه الصور بروعة ، وتخلّفني في حالة ابتهاج ، في البعيد مرح صاخب يلمع في الضوء بصمت ، يبعث في الغابة المحيطة بعض إثارة المتأرجحين لوحدهما ، في ظلال هذه القصة المجهولة .

تقع أعلى غرفة في البيت في برج دائري له نوافذ تشرف على كل الجهات . كانت هذه حجرتي لكتابة الشعر . لا يرى شيء منها سوى رؤوس الأشجار . والسماء الشاسعة . كنت حين ذاك منهمكاً في كتابة «أغاني المساء» . وفي هذه الغرفة كتبت :

هنا ، حيث يهجع الغمام في حضن الفضاء اللامتناهي

شيدت بيتي لك ، أيها الشعر .

مزید عن أغاني المساء

كانت سمعتي بين نقاد الأدب في ذلك الوقت أني شاعر الإيقاع
المكسور والكلام الصياني المتلثم ، وكل أعمالتي ضبابية مبهمه . لم
تكن التهمة باطلة مهما حاولت التقليل من استساغتها . كان شعري
يفتقر إلى العمود الفقري لواقع الحياة . كيف لي أن أحصل على المادة
الضرورية لذلك في عزلة سنواتي المبكرة المطبقة .

إلا أن ما رفضت الإقرار به التلميح بوجود تكلف متعمد خلف هذه
التهمة بالضبابية . يميل البروفسور قوي النظر إلى السخرية من الشاب
الذي يرتدي النظارات الطبية ، كما لو أنه يفعل ذلك للزينة . وإن كان
يمكن إلحاق الأذى بهذا الشاب المسكين لضعفه ، فمن السوء بمكان
اتهامه بالتظاهر بعدم الرؤية .

الغموض هو أحد وجوه الإبداع ، وليس شيئاً خارج الوجود تماماً .
لا يقرنا من الأدب الحقيقي بتأتاً رفض كل الشعر الذي لا يتسم
بالوضوح . كل حالة من طبيعة الإنسان وجدت تعبيراً صادقاً تستحق
البقاء والحفظ ، ولا يمكن دحرها جانباً إلا إذا فشلت في ذلك ، ثمة

مرحلة من حياة الإنسان لا يعبر عنها تنسم مشاعره فيها بمحنة الغموض وإثارة الشفقة ، مع ذلك لا يجوز القول لا مبرر لشعره ، يمكننا في أسوأ الأحوال القول إن شعره عديم القيمة ، وإن لم يكن من الضرورة أن يكون كذلك . ليست الخطيئة في التعبير عن شيء ، بل في العجز عن التعبير عنه .

ثمة ازدواجية في الإنسان تجعله لا يعرف ولا ييالي كثيراً بالشخص القابع في داخله وذلك تحت ضغط انسياب الأفكار والمشاعر والأحداث الخارجية ، بيد أنه لا يمكن تجاهل وجوده في الحياة ، يتألم هذا الساكن الداخلي ، حين تفشل الحياة الخارجية والداخلية في الانسجام معاً ، ويعبر عن ألمه للخارج بطريقة يصعب تسميتها أو حتى وضعها ، إنها صرخة أقرب إلى عويل أبكم منها إلى الكلمات ذات المعنى المحدد .

كان لعواطف الشفقة التي عبر عنها في «أغاني المساء» جذورها في أعماقي . تماماً كما يصارع وعي الإنسان الخامد في النوم كابوساً يحاول البزوغ ، فإن النفس الداخلية الخفية تناضل لتحرير نفسها من التعقيدات والخروج إلى العلن . هذه الأغاني هي قصة هذا الصراع . هناك قوى متعارضة في الشعر كما في كل مجالات الخلق الأخرى . إذا كان الاختلاف كبيراً جداً ، أو الانسجام ضئيلاً جداً ، عندها لا تكون هناك فرصة للشعر . تصب الكلمات نفسها شعراً كصورة من مزار حين يناضل التنافر للوصول إلى غاية ويذيب نفسه في تناغم منسجم .

حين رأت «أغاني المساء» النور أول مرة ، لم يعلن عن نجاحها بأصوات الأبواق المدوية ، وإن لم تفتقر إلى المعجبين أيضاً . لقد ذكرت في مكان آخر كيف قوبل بانكيم بابو عند وصوله حفل زفاف ابنة السيد راميش شاندرادوت الكبرى ، من قبل المضيف بإكليل الزهور المعتاد ، وعندما دخلت أخذ بانكيم بابو الإكليل بلهفة ووضعته حول رقبتني قائلاً «الإكليل له يا راميش ، ألم تقرأ أغاني المساء؟ عندما اعترف السيد دوت بأنه لم يفعل ، كانت الطريقة التي تكلم فيها بانكيم بابو عن بعضها خير مكافأة .

أكسبني «أغاني المساء» صديقاً أثار استحسانه مثل أشعة الشمس براعم محاولاتي الجديدة وأطلقها . كان ذلك بابو بريانات سين الذي أفقده «القلب المحطم» قبل ذلك كل رجاء بي ، وكسبته ثانية بفضل «أغاني المساء» . يعلم معارفه أنه بحار خبير بكل بحور الأدب السبعة وتنفذ بحوثه المعروفة والمجهولة دائماً إلى كل اللغات الهندية والأجنبية تقريباً ، يعطي الحديث معه لمحات عن معظم أفكار العالم غير المطروقة . أفادتني معرفته كثيراً .

كان بميسوره تقديم آرائه الأدبية بثقة كاملة ، لاعتماده على ذوق يساعد في توجيه ما يحب وما لا يحب ، يعجز لساني عن وصف مساعدة نقده لي . كنت أقرأ له كل ما أكتب ، ولولا زخات إعجابه المميز التي تهطل في حينها ، لما كان لحرثي وزرعي أن يأتي بالغلة التي حصدها .

اغاني الصباح

كتبته أثناء إقامتي قرب النهر قليلاً من النثر أيضاً دون تخطيط أو موضوع محدد ، بالطريقة التي يصطاد فيها الأولاد الفراش . تولد حين يأتي الربيع إلى ذهن خيالات متنوعة جملة قصيرة الأمد ، وترفرق بجناحها هناك . هي عادة لا تلاحظ ، لعلها مجرد رغبة لجمع ما جال في خاطري حين ذاك ، أو ربما ألقت ذاتي الطليقة بمخزونها خارجاً وقررت أن تكتب مانهوى . كان المهم عملية الكتابة لا ما أكتبه . نشرت هذه القطع الثرية لاحقاً تحت عنوان «مقالات الغواصين» ، ولم ترَ النور في الطبعة الثانية .

أعتقد أنني بدأت روايتي الأولى «سوق الملكة الشابة» في ذلك الوقت .

بعد أن قضينا وقتاً قرب النهر ، استأجر أخي جيوتيريندرا منزلاً في كلكتا في شارع سادرا قرب المتحف حيث بقيت معه . في غضون كتابتي الرواية وأغاني الصباح ، انفجرت في داخلي ثورة هامة . كنت أذرع سقف منزلنا في جوارسانكو مجيئة وذهاباً في وقت

متأخر من بعد الظهر ، ساعة أضفت حمرة مابعد المغيب المزوجة
بانحسار شفق المساء الآتي سحراً سماوياً ، وازدادت حتى جذران
البيت المجاور جمالاً . هل يمكن أن يكون رفع غطاء التفاهة هذا عن
العالم اليومي خدعة ضوء؟ أبداً .

كان بميسوري رؤية حلول المساء بي حالاً ، وانطماس ظلاله في
ذاتي . تمزج النفس وتخفي كل شيء حين تهيج في وهج النهار ، الآن
وهي قابعة في الخلفية باستطاعتي رؤية العالم بوجهه الحقيقي . الوجه
الملئ بالجمال والبهجة ، لا تفاهة فيه .

منذ تلك التجربة وأنا أكرر متعمداً محاولة تأثير كبت نفسي ، ورؤية
العالم كمجرد مشاهد . كوفنت على ذلك بمتعة خاصة . أذكر أنني
حاولت أيضاً أن أشرح لقريب دون جدوى كيف يرى العالم بألوانه
الحقيقية وتخفيف الحس بالعبء من جراء هذه الرؤية .

من ثم غنمت نفاذ بصيرة أعمق ، رافقتني طوال حياتي .
كانت نهاية شارع سادر . حدث أن كنت واقفاً على الشرفة في
إحدى الصباحات أنظر في ذلك الاتجاه حيث أشرقت الشمس قبل
لحظات عبر رؤوس الأشجار المورقة ، على حين غرة سقط جفن من
عيني وأنا أحدق ، فرأيت العالم يستحم في بهاء رائع ، وأمواج الجمال
والفرح تزدداد في كل صوب . دلفت أشعة البهاء في ثنايا الحزن
والقنوط للذين تراكما في فوادي وغمره بنور شامل .

تدفقت في ذلك اليوم قصيدة «يقظة الشلال» وجرت مثل شلال .

انتهت القصيدة ولم يسدل الستار على فرحي . لم يغدُ شخص أو شيء تافهاً أو غير مسرٍ بالنسبة لي ، ولا حتى الرجل الذي جاء في اليوم التالي أو بعده . كان شخصاً غريباً يزورني بين حين وآخر ويسأل كل أنواع الأسئلة السخيفة . سأل مرة «هل رأيت الله بأم عينك ، ياسيد؟» عند إقاراي بلا ، جزم أنه رآه .

«ماذا رأيت؟» سأله .

«هاج أمام عيوني» كان جوابه .

عادة لا يميل الإنسان لمناقشة مثل هذا الرجل ، علاوة على أنني كنت مستغرقاً حين ذاك تماماً في كتابتي ، مع ذلك وحيث لا ضرر منه ، لم أرغب في إيذاء مشاعره ، لذا تحمّلته بقدر المستطاع .

عندما جاء هذه المرة ، شعرت بالشوق لرؤيته ورحبت به بحرارة . انحسر حجاب غرابته وجنونه . كان الشخص الذي رحبت به هو الرجل الحقيقي الذي شعرت بأنه لا يقل عني ، وأكثر من ذلك تربطني به علاقة حميمة حين لم تزعجني رؤيته ولم أشعر بضيق الوقت ، غمرتني سعادة فائقة وأحسست بالخلاص من بعض نسيج الزيف الحاجب الذي كان يسبب لي ما لست بحاجة له من الألم وقلة الراحة .

بدت لي ، وأنا واقف على الشرفة ، حركات وأشكال وملامح كل المارة أياً كانوا فائقة الروعة في انسيابهم المتفرق على محيط الكون . من الطفولة وأنا أرى بعيوني فقط ، الآن بدأت في الرؤية بكل وعي .

شاهدت شاين مبتسمين يسيران بغير اكترات ، ذراع أحدهما على ظهر الآخر . لم يكن بوسعي رؤية ذلك كلحظة قصيرة ، لأنني أحسست فيها بأعماق إرادة الفرح الخالدة التي لايسر غورها ، يتناثر منها رذاذ لا يحصى من الضحك ، ويتطاير في كل أرجاء المعمورة .

لم ألاحظ من قبل حركات الأطراف والأسارير التي ترافق أقل حركات الإنسان . الآن أصبحت مسحوراً بمختلف أشكالها وأوقاتها ، مع ذلك لم أرها منعزلة ومستقلة ، بل كأجزاء من الرقص الجميل المدهش الذي يشكل عالم الإنسان وينفذ عبر كل بيت وكل نشاط وحاجة إنسانية متنوعة .

صديق يضحك مع صديق ، أم تداعب طفلها ، بقرة تمشي بجانب بقرة وتلعق جسدها . أنزلت بي كثرة هذه الحركات صدمة يقرب مذاقها من الألم .

حين كتبت في تلك الفترة :

لا أدري كيف فتح قلبي أبوابه على حين غرة
وسمح لحشود العالم بدلوفه ، يحيي بعضهم بعضاً .
لم يكن ذلك مبالغة . الأحرى أنني أفقرت الى قوة التعبير عن كل ما شعرت به .

بقيت فترة في نعمة نكران الذات هذه . ثم فكر أخني بالذهاب إلى دارجيلنج . حسبت أن هذا أفضل ، ففي قمم جبال الهملايا الشاسعة سيتسنى لي التعمق أكثر في ما انكشف لي في شارع سادار ؛ على كل

سأرى كيف ستعرض الهملايا نفسها على رؤية موهبتي الجديدة . إلا أن النصر كان في ذلك البيت الصغير في شارع سادار . أدركت حالما صعدت الجبال ونظرت حولي أنني فقدت رؤيتي الجديدة . لا بد أن غلطتي كانت لا تزال في تخيل أن صدقاً أكثر يمكن أن يأتي من الخارج . لا يقدم لي ملك الجبال شيئاً من موهبته مهما كانت قوته في اختراق السماء ، في حين يمكن للمعطي أن يتعطف بمنح رؤية خالدة في أقدر زقاق وفي لحظة من الزمن .

تجولت بين أشجار التنوب وجلست قرب الشلالات واستحمت في مياهها . حدثت في عظمة كانشينجونجا في سماء صافية من الغيوم لكن هناك ، في ما بدا لي أقرب الأماكن لوجودها ، لم أجد شيئاً . عرفتني غير أنني فشلت في رؤيتها بعد ذلك ، حين كنت أظهر إعجابي بالحجر الكريم أطبق باب الصندوق فجأة وتركني أحمل في علبة الجواهر . لكن بسبب براعة صنعها العالية الجودة . لا خوف الآن من خلطي بينها وبين مجرد صندوق فارغ . أشرفت «أغاني الصباح» على النهاية ، وخط آخر سطورها مع «الصدى» التي كتبها في دار جيلنج . كانت مبهمة لدرجة حدث بصديقين للرهان على معناها الحقيقي . كان عزائي الوحيد أنني لم أقدر أيضاً على شرح اللغز لهما عندما طلبا مني الحل . لذا لم يخسر أياً منهما الرهان .

واحسرتاه ، على الأيام التي ولت ، حين كنت أكتب قصائد مباشرة حول «اللوتس» أو «بحيرة» .

لكن هل يكتب المرء الشعر ليفسر شيئاً؟ إنه شعور في القلب يحاول أن يجد صيغة خارجية في قصيدة . أرتبك عندما يقول شخص بعد سماع قصيدة أنه لم يفهمها . إذا شم زهرة وقال نفس الشيء ، قد يكون الجواب «ليس هناك ما يفهم ، إنها مجرد شذى» إذا أصر قائلاً «أعرف هذا ، لكن مامعنى كل شيء؟» عندها على المرء إما أن يغير الموضوع أو يزيد الأمر غموضاً بإخباره أن الشذى هو الشكل الذي أخذه الفرح الكوني الشامل في هذه الزهرة بالذات . الصعوبة هي أن للكلمات معانٍ .

وهذا يفسر لماذا على الشعراء تبديلها وتحريفها في الوزن والقافية حتى يبقى المعنى مقيداً نوعاً ما ويسمح للشاعر بالتعبير عن نفسها .

لا يلزم التعبير عن المشاعر إقرار صيغة أساسية أو معلومة علمية أو فكرة أخلاقية مفيدة . القصيدة مثل دمة أو ابتسامة مجرد صورة لما يجري في الداخل . إذا جنى العلم أو الفلسفة أي فائدة منها ، فعلى الرحب والسعة ، لكنها لم تكتب لذلك ، إذا اصطدت سمكة من معدية فأنت رجل محظوظ ، لكن هذا لا يجعلها مركب صيد ، ولا يتوجب عليك الإساءة لصاحب المعدية إذا لم يجعل صيد السمك مهنته .

«الصدى» قصيدة كتبها منذ أمد بعيد ، ولا أذكرها لتقديم شرح لمعناها . رغم ذلك مهما كانت حسناتها أو سيئاتها الأخرى ، فإني أؤكد للقاريء أن قصدي لم يكن تقديم لغز أو إنشاء رسالة خفية

بذكاء . واقع الأمر أن شوقاً ولد في قلبي ، ودعوت مارغبت فيه
«صدي» لعجزي عن إيجاد اسم آخر .

يوم انبثقت من أصل ومنشأ الكون تيارات اللحن ، انعكس صداها
من وجوه المحبين والأشياء المحببة الأخرى المحيطة بنا ودلف قلوبنا .
مانحبه يجب أن يكون هذا الصدى ، وليس الأشياء التي يعكس منها ،
لأن ما نتلطف بالنظر إليه يوماً بصعوبة ، يمكن أن نكرس له كامل
جهودنا في يوم آخر .

لقد نظرت إلى العالم برؤية خارجية لمدة طويلة ، حتى لم أعد أرى
وجهه الشامل وبهجته . حين يجد شعاع نور طريقه فجأة من أعماق
الأعماق الداخلية لوجودي ، يتشرف في كل مكان ويضيء كل الأشياء
التي لاتعدو أموراً وأحداثاً مكتومة ، بل منفتحة أمام رؤيتي ككل .

التيار الذي يجري من اللامحدود إلى المحدود هو الحقيقة والخير ؛
وهو عرضة للقانون ومحدد في الشكل ، صدها هو الجمال والفرح ،
أي أنه أكثر شيء غير ملموس يقربنا من أنفسنا . هذا ما حاولت أن
أقوله في «الصدى» عبر حكاية رمزية أو أغنية . إذا كانت النتيجة غير
واضحة فلا عجب من ذلك ، إن المحاولة ليست واضحة لمن قام بها .

دعني أدون هنا مقطعاً من رسالة كتبتها في عمر متقدم حول «أغاني
الصباح» :

لا شيء في العالم يوجد حقاً سوى قلبي الذي هو حالة فكرية يتسم
بها سن معين . حين يستيقظ القلب أول مرة ، يمد يديه ويحاول أن

يستحوذ على العالم بأسره ، كطفل بأسنان جديدة يحسب أن لا شيء مصنوع لفته ، تدريجياً يدرك ما يرغب حقاً وما لا يرغبه . ثم تضيق حوافره الضبابية وتأخذ شكلاً وربما تتوهج أو تضيء نفسها .

إذا أراد الإنسان منذ البدء الاستحواذ على كل العالم ، فلن يحصل على شيء . حين يركز بكل قواه رغبته على شيء مهما كان ، تمسي بوابة اللانهائي في متناول اليد . كانت «أغاني الصباح» أول مشروع للاتي الداخلية ، وتفتقر نتيجة ذلك إلى أي دلالة لهذا التركيز .

للجيشان الأول الطاغي للفرح هذا تأثير يقودنا إلى اتجاه أكثر تمييزاً ، تماماً مثل بحيرة تبحث عن منفذ كنهر . في طبعة موهبتابو لأعماله ، وضعت أغاني الصباح ، في مجموعة من القصائد تحت عنوان «الابتهاق» . توجد في هذه القصائد أول أنباء هروبي من قفر القلب إلى العالم الرحب . منذ ذلك الحين ، أقام هذا القلب الحاج صلته بذلك العالم ببطء ، وجهاً بعد وجه ، بأتراحه وأفراحه ، ظلالة وأشعة شمس ، وفي نهاية المطاف ، بعد هبوط عدد وافر من الدرجات المتغيرة الكفاف إلى النهر منزلقاً ، ستصل إلى اللانهائي ، لا إسهاباً غامضاً ، بل الكمال التام للحقيقة .

كنت أستمع في صغري بالانصال البسيط الحميم مع الطبيعة . كان لكل شجرة جوز هند في حديقتنا شخصية مميزة . أذكر الآن بوضوح كيف كنت أرى عند عودتي إلى البيت من المدرسة السحب الزرقاء الرمادية المشبعة بالماء تتراكم بكثافة فيغمرنني فرح عميق عظيم في

وهلة . وعندما أفتح عيني في الصباح ، يناديني العالم المستيقظ السعيد
للالتحاق به كرفيق لعب ؛ وتخطفني بخفة سماء الظهيرة المتقدة ، من
الوجود اليومي إلى أعماق صومعة ناسك خلال ساعات القيلولة
الصامتة ، ويفتح ظلام الليل الباب على دروب وهمية ويحملني فوق
البحار السبع وعبر الأنهر الثلاثة عشرة متجاوزاً كل الاحتمالات
والمستحيلات إلى عالم المعجائب .

ثم في أحد الأيام ، بحلول فجر الشباب ، شرع قلبي الجائع بالبكاء
من قلة الزاد ، فوضع حاجزاً لتفاعل الداخل والخارج ، دار كل كياني
حول قلبي القلق ، محدثاً دوامة حصرت وعيي . ضياع الانسجام هذا
نتيجة ادعاءات القلب الطاغية ، والانتقاض المترتب عن تبادل أفكارني
ومشاعري ، هو ما تفجعت عليه في «أغاني النساء» .

احتفلت بعد ذلك في «أغاني الصباح» بانفتاح بوابة الحاجز المفاجيء
نتيجة صدمة مجهولة ، استعدت عبرها صلتي المفقودة ، ليس كما
عرفتها من قبل فحسب ، بل بشكل أعمق وأشمل بفضل النفور
الطاريء .

وهكذا ختم الكتاب الأول من حياتي بهذه الفصول من الاتحاد
والانفصال وإعادة الاتحاد . في الواقع ليس صحيحاً أنها ختمت .
سيستمر نفس الموضوع مثبتاً تعقيدات أسوأ وحلولاً أكثر أحكاماً ويقود
إلى محصلة أعظم . كل منا يأتي ويتم فصلاً من كتاب أكبر . يشبه
الأمر أسلاك دولاب الدراجة عند إلقاء نظرة خاطفة يبدو كل سلك في

المحيط مستقلاً ، لكن في الواقع كل الأسلاك ترجع إلى مركز الدولاب نفسه .

نشرت الكتابات النثرية لفترة «أغاني المساء» ، كما أسلفت ، تحت اسم بييدها براياندها . كتابات أخرى ذات صلة بوقت كتابة «أغاني الصباح» ظهرت تحت عنوان ألو شاننا «محاورات» . السمات المختلفة لهاتين المجموعتين هي مؤشر جيد للتغير الذي طرأ عليّ في تلك الغضون .

راجيندرا لال ميترا

في تلك الأيام فكّر أخي جيوتيريندرا بتأسيس أكاديمية أدبية لجمع شمل كل رجالات الأدب المعروفين . كانت الأكاديمية تهدف لتصنيف الاصطلاحات الفنية الموثوقة في اللغة البنغالية . ومن ناحية أخرى المساعدة في عموها - فكرة مشابهة للأكاديمية الآداب الحديثة .

تبنى الدكتور راجيندار لال ميترا الفكرة بحماس وأصبح رئيسها طوال فترة وجودها القصيرة . عندما ذهبت لدعوة البانديت فيلديا ساجار للانضمام إليها ، أصغى لشرحي حول أهدافها وأسماء الأعضاء المقترحين قبل أن يقول «نصيحتي لك أن تتركنا خارجها . لن نحقق شيئاً أبداً مع ذوي الشأن من المشاهير ، لأنهم لا يتفقون مع بعضهم بعضاً» . برفضه أصبح بانكيم بابو عضواً ، لكن لا أستطيع القول إنه أولى العمل اهتماماً كبيراً .

بصراحة ، عمل راجيندرا لال ميترا وحده طوال مدة وجود الأكاديمية . بدأ بالمصطلحات الجغرافية حيث صنفت اللائحة التمهيدية من قبل الدكتور راجيندرا لال شخصياً ، ثم طبعت ووزعت على

الأعضاء لإبداء الرأي . كانت عنده فكرة أخرى لكتابة اسماء الدول الأجنبية بحروف اللغة البنغالية كما تلفظ .

تحققت نبوءة البانديت فيديا ساجار . ثبت استحالة جمع المشاهير لفعل أي شيء ، واندثرت الأكاديمية في وقت قصير بعد أن تفتحت براعمها ، إلا أن راجيندرا لال ميترا كان خبيراً متعدد البراعات ، أكاديمية بنفسه .

كوفت على عملي في هذه الأكاديمية بأكثر مما أستحق ، فلقد تعرفت على الدكتور راجيندرا . قابلت في حياتي كثيراً من رجال الأدب البنغاليين ، على أن أحداً لم يترك انطباعاً بمثل هذه الأهمية كما فعل .

كنت أذهب لزيارته في مكتب الوصاية في مانينكتولا في الصباح فأجده دائم الانهماك في دراسته ، ويطيش الشباب غير المراعي للآخرين لأجد حرجاً في إزعاجه . لكن لم يبد أي تأفف مطلقاً . كان يضع جانباً ما بين يديه حالماً يراني ، ويأخذ في مجاذبتي أطراف الحديث . كان من المعروف أنه ثقيل السمع ، لذا لم يعطني الفرصة لطرح أسئلة عليه . كان يطرح موضوعاً واسعاً ويتكلم حوله ، وهذا سبب انجذابي إليه . لم يوفر لي حديث أي شخص آخر مثل هذا الغنى من الأفكار إزاء العديد من المواضيع المتنوعة . كنت أستمع إليه ببهجة لا حدود لها .

اعتقد أنه كان عضواً في هيئة الكتب المدرسية ، ويشفع كل كتاب يتلقاه للموافقة عليه بعد قراءته بتعليق على حاشيته بقلم رصاص .

كان يختار أحياناً أحد هذه الكتب كنص للحديث عن بنية فقه اللغة البنغالية بشكل عام . كان في ذلك فائدة كبيرة لي . لم تكن هناك مواضيع كثيرة لم يدرسها ، ويفسر كل ما درسه بوضوح . لو لم نعقد على الأعضاء الآخرين في الأكاديمية الغر ، وتركنا كل شيء إلى الدكتور راجيندرا لال ، لورثت أكاديمية الآداب الحديثة ، ودون ريب ، ما يشغلها الآن في صورة متطورة .

كان الدكتور راجيندرا لال ميتراً باحثاً عميقاً ، ومن ناحية أخرى شخصية مؤثرة تشع من ملامحه . كان يتصرف بكياسة ، وهو المفعم بالحياة في الحياة العامة ، ويتكلم في معظم المواضيع العسيرة مع غلام مثلي دون أي مسحة من التكبر . لقد استغللت هذا لحد أني أخذت منه مساهمة إلى بهاراتي تدعى «كلب ياما» . لم أكن أجرؤ على فعل ذلك مع معاصريه الآخرين العظماء ، ولا كنت سأقابل بمثل هذا الجواب لو فعلت .

مع ذلك ، كان معارضوه في المجلس البلدي أو المجلس الأعلى في الجامعة يرتعدون خوفاً عندما يقضب . في تلك الأيام ، كان كيرشنا داس بال الدبلوماسي في السياسة ، ورجيندرا لال ميترا المقاتل الباسل .

توجب عليه توظيف عدد من معلمي السنسكريتية للقيام بالأعمال الميكانيكية في الجمعية الآسيوية للنشر والبحوث . أذكر كيف أثار ذلك حسد بعض ذوي العقول الدنيئة من الناقصين ليقولوا إن هؤلاء

المعلمين يفعلون كل شيء ، بينما يحظى راجيندرا على الفضل بخداع . اليوم كثيراً ما نجد من يتحلون لأنفسهم نصيب الأسد من أي إنجاز ويعتبرون مستخدمهم مجرد رئيس صوري ، لو كان للأقلام عقولٌ فإنها ولا ريب ستتحرر بسبب الظلم الذي يلحق بها من جراء تلطيخها بالحبر ، في حين يحصل الكاتب على المجد .

من الغريب أن هذا الرجل لم يحصل على أي اعتراف من مواطنيه حتى بعد مماته . لعل أحد الأسباب أن الحداد الوطني على فيدياساجار ، الذي وافته المنية في تلك الغضون لم يترك مكاناً لتقدير الآخرين ممن خطفهم الموت . سبب آخر ، ربما لأن مساهماته الرئيسية كانت خارج نطاق الأدب وعليه لم يتسنَّ له الوصول إلى قلوب الشعب .

كاروار

انتقلنا من شارع سادار إلى قرب كاروار على شاطئ البحر الغربي ، حيث كان أخي الثاني يعمل قاضياً هناك . كاروار ، المقر الرئيسي لمنطقة كانارا في الجزء الجنوبي من رئاسة بومبي ، هي كراسه دعائية في الأدب السنسكريتي لتلال مالايا حيث يزرع الهال المتسلق وشجر الصندل .

كان المرفأ الصغير المحاط بالتلال معزولاً لحد نفى عنه أي علاقة بميناء ، ويمد الشاطئ الهلالي الشكل ذراعيه حول البحر الشاسع تماماً كما لو أنه يناضل بتوق للإحاطة باللانهاثي . على حافة الشاطئ الرملي الواسع غابة أشجار الكسورنياس التي يقطع أحد أطرافها نهر الكالاتادي الذي يصب في البحر بعد جريانه في ممر ضيق محاط من جانبيه بالتلال .

أذكر يوم أبحرنا في النهر ذات مساء مقمر في قارب صغير . وقفنا عند إحدى قلاع تلال شيفاجي القديمة . عند هبوطنا وجدنا أنفسنا في ساحة بيت فلاح صغيرة نظيفة . جلسنا في بقعة مضاءة بشعاع القمر

ثمعن النظر إلى ما فوق السور الخارجي ، ومن ثم تناولنا ما جلبناه معنا
من طعام . في إيابنا تركنا القارب ينساب على هواه . كان الليل قد
سكن فوق التلال والغابات الثابتة ، وجريان كالانادي الصامت يغمرنا
جميعاً . وصلنا منبع النهر بعد وقت طويل ، وعوض الرجوع بالبحر ،
تركنا القارب خلفنا وعدنا إلى البيت سيراً على الأقدام فوق الرمال .
كان الليل قد تأخر والبحر هادئ دون أي موجة ، وسكنت حتى
مهمة أشجار الكسوريناس الدائمة الإزعاج وتجمدت ظلالتها على
طول حافة الرمل الفسيحة بلا حراك ، وتهجع بسلام دائرة التلال
الزرقاء الرمادية المحيطة بالأفق تحت السماء .

في هذا البياض الصامت اللامحدود سرنا وظلالنا دون أن ننس
بكلمة . حين وصلنا البيت ، ضاعبت رغبتني في النوم في شيء أعمق .
تمتزع القصيدة التي كتبها على ذلك الشاطئ النائي بالليل ، بشكل لا
فصام فيه . لا أدري كيف سيكون تأثيرها على القاريء معزل عن هذه
الذكريات . أدى هذا الشك لحذفها من طبعة موهيت بابو لأعمالي .
أعتقد أن ذكرياتي هي المكان المناسب لها :

دعني أغرق ، أتوه في أعماق منتصف الليل
دع الأرض تتركني ، طليقاً من عائق اللجنة الترابية
أيتها النجوم الثملى بشعاع القمر ، أرقبي من بعد
الأفق يغمرني بأجنحته .

لا تدع هناك أغنية ، لا كلمة ، لا صوتاً ، لا لمساً ، لا نوماً ، ولا يقظة .

بل ضوء القمر وحده كخدار نشوة في وجودي وفي السماء .
العالم ، في نظري ، سفينة حجاج لاحصر لهم ، تتلاشى في زرقة
السماء النائية .

تضعف وتتلاشى أنشودة ملاحيتها في الهواء .
وأنا أغرق في ثنایا الليل اللامتناهي ، أذوي بعيداً عن نفسي ،
واتضاءل إلى شفير هاوية . عليّ أن أضيف أن طفرة الشاعر عند الكتابة
لا تضمن جودتها . الأخرى ، إن التعبير يميل إلى العاطفة المكثفة . تماماً
كما لا يتوجب على الكاتب أن يفصل عن الشاعر التي يعبر عنها ، فإن
شدة قربه منها أيضاً تقصيه عن الشعر الحقيقي . الذاكرة هي أفضل
فرشاة لرسم الألوان الأصيلة ، يمكن أن يصبح التقارب قوة ضاغطة
تؤدي إلى حرمان الخيلة من الحرية الكافية . في كل الفنون وليس في
الشعر فقط ، على عقل الفنان أن يحصل على درجة من التحفظ ولا
يسمح للمبدع القابع في داخله بالسيطرة الكاملة . إذا تغلبت المادة
المعالجة على المبدع تكون النتيجة مجرد نسخة مطابقة للحدث وليس
انعكاساً لها من وجهة نظر الفنان .

نار الطبيعة

كتب في كاروار قصيدة درامية باسم «نار الطبيعة» . كان البطل سانيا سي يناضل للانتصار على الطبيعة والوصول إلى المعرفة الحقيقية لذاته وذلك بقطع روابط الرغبة والعاطفة . تعيده فتاة صغيرة من مناجاة اللامحدود إلى العالم وإلى الرابطة العاطفية الإنسانية . عندها يدرك أنَّ العظیم كامن في الصغير ، واللامحدود في تخوم الشكل وحرية الروح الأبدية في الحب . في شذى الحب فقط ، يدمج كل محدود باللامحدود .

من المؤكد أن شاطئ البحر في كاروار هو المكان المثالي لتقدير أن جمال الطبيعة ليس من سراب الخيال ، بل انعكاس الفرح في اللامحدود الذي يغرينا بضياح أنفسنا . وليس من المدهش إذا فقدنا اللاتناهي هذا في التعبير المهرد لهذا الفرح الكوني الشامل . لكن عندما نرى الجمال في أوضاع الأشياء ، والقلب في اتصال مباشر مع الضخامة ، هل يبقى مكان للنقاش ؟ !

تنقل الطبيعة السانياسي إلى اللامحدود الذي توجّه وعظمه القلب

في المحدود . من جهة قدّمت «ثأر الطبيعة» القرويين وأبناء السبيل
الراضين بوترة الحياة البيتية وغير الواعين لأي شيء غيرها ، ومن جهة
أخرى السانياسي المنهمك بنبد كل ما بحوزته ، بما فيها نفسه ، والقائها
في لائنائه نسجه خياله الذاتي . حين يوحد الحب بين الاثنين ويلتقي
الناسك برّب البيت ، تختفي تفاهة المحدود البادية وبطلان اللامحدود
الظاهري ، على حد سواء . هذه ، بصيغة مختلفة قليلاً ، قصة تجربتي
مع أشعة النور التي شقت طريقها إلى أعماق الكهف الذي انعكف فيه
بعيداً عن العالم الخارجي ، والتي قربتني للطبيعة مرة ثانية أكثر . يمكن
أن تقرأ «ثأر الطبيعة» كمقدمة لجمل أعمال الأدبية في المستقبل ، أو
بالأحرى ، للموضوع الذي تطرقت إليه كل كتاباتي :

متعة الوصول إلى اللامحدود ضمن المحدود .

كتبت في طريق عودتنا من كاروا بعض الأغاني لقصيدة «ثأر
الطبيعة» على ظهر السفينة . أبهجتني الأغنية الأولى كثيراً وأنا اكتبها
وأغنيها جالساً على السطح :

أماه ، دعي ابنك الحبيب لنا

دعينا نصحبه إلى الحقل حيث يرعى القطيع .

أشرقت الشمس ، تفتحت البراعم ، قطع الأبقار ذاهب إلى المرعى ،
وليس بوسعهم ترك أشعة الشمس والزهور ولعبهم في المراعي خاوية .
يريدون أن تكون الشايما (كريشنا) معهم هناك في غمرة كل ذلك .
غادروا مكرين لأنهم يودون رؤية اللامحدود في كل جماله المزخرف

بعناية ، والمشاركة في المرح بين الدرجات الهابطة إلى النهر ، وفي
الحقل والغابة والجبال ، لا الإعجاب من بعيد ولا الافتتان بالفخامة .
متطلباتهم قليلة ، كل ما يحتاجونه من الملابس كساء أصفر بسيط ،
وأكليل من الزهور البرية . ذلك أنها تغيب حين يبحث عنها بتوق أو
بموكب عظيم في المكان الذي يعم الفرح كل أرجائه .
بعد عودتي من كاروا بقليل تزوجت . كنت حين ذاك في الثانية
والعشرين .

صور وأغنيات

«صور وأغنيات» هو عنوان كتاب من القصائد كتب معظمها في تلك الفترة . كنا يومها نعيش في بيت بحديقة في طريق لورسيركيولار ، بمحاذاة على الجهة الجنوبية بومتي* كبيرة . كنت أهوى مراقبة مايجرى في المستوطنة المزدهمة . من أعمال السكان ، لهوهم واستراحتهم ، واختلاف قدومهم وذهابهم ، وأنا قابع قرب النافذة . كان كل ذلك لي كقصّة تحققت . استحوذت عليّ حين ذاك ملكة متعددة النظرات . أحطت كل صورة مستقلة بضوء من مخيلتي وفرحي وقلبي وسكبت فيها ما لها من عواطف - كانت متعة تميّز كل صورة مثل رسمها تماماً ، كلاهما حصيلة رغبة لفهم ما تراه العين بالعقل ورؤية ما يتخيله العقل بالعين . لو كنت رساماً لحاولت الاحتفاظ ولا ريب بسجل خيالات وإبداعات تلك الحقبة ، يوم كنت في غاية النشاط واليقظة وسرعة الاستجابة ، إلا أنني افتقرت لتلك الهبة . ما توفر لي هما الكلمات والقوافي ، وحتى بهما لم أكن قد تعلمت الرسم بعد بضربات ثابتة أو التلوين دون إسراف . مع ذلك

*راجع شرح المفردات في نهاية الكتاب .

قضيت يوماً كاملاً في رسم صور من أحلام صباي المتنوعة ، كطفل بصندوق ألوانه الأول . قد تظهر هذه الصور لو عرضت اليوم ، مع الأخذ بعين الاعتبار أنني كنت في الثانية والعشرين ، ملامحٌ جذيرة بالاهتمام حتى عبر التنفيذ غير المتقن والألوان الضبابية . لقد ذكرت أن أول كتاب في حياتي الأدبية جاء مع نهاية «أغاني الصباح» . استمر نفس الموضوع تحت أسماء مختلفة . أعلم أن كثيراً من الصفحات الأولى في الكتاب غير مهمة . تحتاج البدايات الجديدة بلا شك إلى تصحيح كبير في التمهيدات الزائدة . لو كانت هذه أوراقاً على شجرة لسقطت في الوقت المناسب من سوء الحظ ، تبقى صفحات الكتاب متشبثة به حتى عندما لا تكون هناك حاجة لها . ميزة هذه القصائد أنها أبدت اهتماماً كبيراً بالأشياء العادية . غنمت «صور وأغنيات» كل فرصة لإعطاء قيمة للأمور التافهة وذلك بإشباعها بالألوان النابعة من صميم القلب . لا يتصف هذا عملية التأليف الموسيقي . عندما يدورن العقل بشكل صحيح توقف كل أجزاء أغنية الوجود ذبذباتها المتعاطفة . كانت هذه الموسيقى التي استيقظت في داخلي السبب في عدم شعوري بتفاهة أي شيء عندما أكتب . أثار كل ما وقعت عليه عيناى استجابة في الداخل . في شبابنا ، نصبح مثل أطفال يلعبون بالرمل والحجارة والأصداف وكل ما يجدونه -لأن روح اللعب في داخلهم- ونذكر أن الكون قيثارة بآلاف عديدة من الأنغام ، يمكن لأي منها أن تلازمنا كرفيقة ، ولاداعٍ للسمي خلفها بعيداً .

فترة طارئة

بين «صور وأغنيات» ، و «نغمات حادة ونغمات خفيفة» ظهرت مجلة أطفال تدعى «بالاك» وازدهرت وماتت مثل نبتة حولية . شعرت زوجة أخي الثاني بالحاجة الماسة إلى مجلة أطفال مصورة . كانت فكرتها أن يساهم صغار العائلة بمادتها . لكن حين أحست أنها وحدها غير كافية للمهمة ، تفرغت للتحرير وطلبت مساعدتي في المساهمة بالمواد .

حدث أن زرت راج نارين بابو في ديوجهار بعد صدور عدد أو عديدين من «بالاك» . في رحلة العودة كان القطار مزدحماً ، وحيث أن النور غير مظلل فوق المضجع الوحيد الذي استطعت الحصول عليه ، هجرني السبات . فكرت في استغلال هذه الفرصة للتفكير في قصة لمجلة «بالاك» . بالرغم من محاولتي تملصت القصة مني ، غير أن النوم جاء وأنقذني . رأيت في المنام درجات معبد حجرية ملطخة بدماء ضحايا ، وفتاة صغيرة تقف هناك مع والدها ، تسأله بلهجة يرثى لها «أبي ، ماهذا؟ لم كل هذه الدماء؟» . يحاول الأب المتأثر داخلياً أن

يهدىء من تساؤلها بإظهار الفظاظلة . عندما استيقظت شعرت بأني وجدت قصتي . رأيت كثيراً من قصصي وكتابات أخرى أيضاً في الأحلام . جعلت قصة الحلم هذه جزءاً من حوليات ملك تريورا جويندا ماينكيا ، وعملت منها قصة مسلسل قصيرة لجلة «بالاك» أسميتها «راجارشي» أي «الحكمة الملكية» .

كانت تلك أيام دون أي هموم بتاتاً . لم يكن ثمة ما يلح للتعبير عن نفسه في حياتي أو كتابتي . لم أكن قد التحقت بعد بجموع الرحالة في درب الحياة ، بل مجرد مشاهد من نافذة . مر من أمام ناظري كثيرون من عابري السبيل وهم يؤدون مهمات متنوعة ، وجاءت الفصول دون دعوة ومكثت معي كزوار في أرض أجنبية .

ليس الفصول فحسب ، بل الرجال من كل الأنماط الغريبة انسابوا كقوارب جارية دون مرسة ، وغزوا حجرتي الصغيرة على نحو دوري . سعوا لتعزيز غاياتهم الخاصة على حساب قلة خبرتي بأساليب كثيرة غير عادية . لم يكن عليهم أن يتكبدوا كل هذا العناء لاستغلالني ، فلم أكن كثير خبرة ومتطلباتي قليلة وأفتقر إلى حذق التمييز بين النية الحسنة والشريرة . كثيراً ما تصورت أنني أساعد في دفع تكاليف دراسة أناس صلتهم بها عديمة كصلتهم بالكتب .

جلب لي شاب طويل الشعر مرة رسالة من شقيقته تطلب فيها مني أن أعتني بأخيها الذي يعاني من ظلم وتعسف زوجة أبيه -الخيالية كالشقيقة نفسها- كفاني أن الأخ ليس خيالاً . كانت رسالة شقيقته

غير ضرورية كحاجة خبير في الرماية للبراعة كي يسقط طيراً لا يستطيع الطيران .

جاءني شاب آخر وأخبرني أنه يدرس ليحصل على بكالوريوس آداب ، ولكنه عاجز عن تقديم الامتحان لأنه مصاب بداء في المخ . قلقت عليه وحيث أنني لست خبيراً في العلوم الطبية أو أي علم آخر ، لم يكن بوسعي إسداء النصيح له . مع ذلك راح يشرح أنه رأى في المنام أن زوجتي كانت أمه في مولد سابق ، وقد يشفى إذا شرب قليلاً من ماء لمس قدميها . ختم قوله مبتسماً وربما لا تؤمن أنت بمثل هذه الأشياء ! . أجبت أنه إيماني ليس مهماً ، لكن إذا كان يظن أنه سيشفى ، فعلى الرحب والسعة ، وهكذا جلبت له قارورة ماء من المفروض أنها لمست قدمي زوجتي . قال إنه شعر بتحسن كبير . بدأ بالماء ليصل في مجرى التطور الطبيعي إلى الطعام . من ثم انتبد ركناً من حجرتي وراح يقيم حفلات التدخين مع أصدقائه حتى أجبرت على الهرب من الهواء المثلث بالدخان . أثبت ، ولاريب ، تدريجياً أن عقله ليس ضعيفاً رغم مرضه .

بعد هذه التجربة أصبحت بحاجة إلى إثبات مقنع قبل أن أضع ثقتي في أطفال ميلاد سابق . لا بد أن سمعتي قد شاعت لأني تلقيت رسالة من ابنة في محنة . هنا ، وضعت حداً لذلك بلطف .

في غضون ذلك توثقت صداقتي مع بابو شريش شاندراماجومدار بسرعة فائقة . كان يأتي كل مساء إلى حجرتي الصغيرة مع برابو بابو

لنتأقش الأءب والموسيقى حتى ساعة متأخرة من الليل . في بعض
الأحيان كنا نقضي كل النهار على هذا المنوال . في الواقع لم تكن ذاتي
قد تشكلت ونمت في شخصية قوية محددة ، وعليه سارت حياتي
بخفة وسلاسة سحابة خريفية .

نكيم شاندرنا

في ذلك الوقت بدأت معرفتي بيا نكيم بابو الذي رأيته قبل ذلك بوقت طويل . شرع خريجو جامعة كلكتا باقامة اجتماع سنوي ، كان موجهه الروحي بابو شاندرانات الذي دعاني لإلقاء قصيدة هناك ربما لأمله أن أصبح واحداً منهم في المستقبل . كان شاندرانات بابو آنذ شاباً . أذكر أنه قام بترجمة قصيدة عسكرية ألمانية إلى الإنجليزية ، اقترح أن يلقيها بنفسه في ذلك اليوم ، لذا جاء مفعماً بالحيرة ليتدرب عليها . حيث أن قصيدته المفضلة كانت قصيدة غنائية لشاعر مقاتل يتغنى بحسامه المحبوب ، سيقتنع القاريء أنه حتى شاندرانات كان يوماً شاباً ، وأكثر من ذلك أن تلك الأيام كانت مميزة حقاً .

بينما كنت أطوف بين الحشود في اتحاد الطلاب ، صادفت فجأة شخصية أثارت اهتمامي لتمييزها عن أي مخلوق آخر ، والتي لا يمكن أن تضيق في أي حشد ، كانت ملامح هذه الشخصية الطويلة الوسيمة تشع بالبهاء . لم أقدر على السيطرة على فضولي ، وشعرت أنه الشخص الوحيد الذي أود معرفة اسمه في ذلك اليوم . حين علمت

أنه بانكيم بابو ازداد إعجابي لأن ذلك يمثل تطابقاً رائعاً بين الخالق والخلق . كان أنفه المعقوف وشفاهه المسطحة ونظرته الحادة تنم عن ذكاء مفرط . بدا ويدها تطوقان صدره كأنه يسير وحده منفرداً شامخاً فوق الحشد العادي هذا أكثر ما أثار اهتمامي . كان على جبينه سمة أمير حقيقي بين الرجال .

حادثة صغيرة في ذلك الاجتماع يتعذر نسيانها . كان في إحدى الحجر معلم يلقي بعض القصائد السنسكريتية من نظمه ويفسرها بالبنغالية إلى المستمعين . لم تكن إحدى الإشارات الضمنية لفظة تماماً بل نائية إلى حد ما . حين استمر المعلم في شرحها ، غطى بانكيم بابو وجهه بيديه وانطلق خارجاً . كنت قرب الباب ويمسوري مشاهدة جسده المتقلص المتراجع .

بعد ذلك تشوقت مراراً لرؤيته ، إلا أن الفرصة لم تسنح لي . أخيراً ، عندما كان ممثلاً للحاكم في هاوواه ، تجرأت وعرجت عليه . تقابلنا وحاولت جهدي محادثته ، إلا أنني شعرت بارتباك كبير في طريق عودتي إلى البيت ، كما لو أنني تصرفت كشاب غير مغرور بإقحام نفسي عليه دون دعوة أو تقديم .

بعد سنة أو ستين ، أصبحت أصغر رجالات الأدب في ذلك الزمن ، إلا أن موقعي من حيث ترتيب الجدارة بقي عرضة للشك . امتزجت السمعة التي حصلت عليها بكثير من الريبة وليس بقليل من السلوك اللبق لإظهار التفوق . كانت العادة السائدة حين ذاك في البنغال تعين

مكاناً لكل أديب وذلك بمقارنته بند مفترض من الغرب . وهكذا ،
واحد كان بيرون البنغال ، وآخر أميرسون وهلم جرا . أنا أصبحت
أدعى شيللي البنغال ، إهانة لشيللي وأمر مضحك لي .

كان لقبى المعترف به شاعر ليزينج . إحرزاتي ضئيلة ومعرفتي بالحياة
قليلة ، وفي كلا الشعر والنثر ، فاقت العاطفة الجوهر . لم يكن هناك ما
يوفر قاعدة تمكن أحداً من الاطراد بثقة . كانت ملابسي كتصرفاتي من
نفس النوعية غير السوية ، شعري طويل وأنا غارق ربما في أخلاق
الدمانة الشعرية المغالى بها . باختصار ، كنت غريب الأطوار وعاجزاً
عن ملاءمة نفسي في الحياة اليومية كأى رجل عادي .

في تلك الغضون أصدر بابو أكشاي ساركار مجلته النقدية الشهرية
ناباجيان - الحياة الجديدة - التي كنت أساهم فيها بين حين وآخر . أما
بانكيم بابو فقد تخلص عن تحرير المجادارشان وأنهمك في الكتابة
اللاهوتية التي أصدر من أجلها المجلة الشهرية براشار - المبرشر - أسهمت
بأغنية أو اثنتين فيها وإعجاب عاطفي مسرف بقصائد فيشنافا الغنائية ،
الآن صرت أقابل بانكيم بابو الذي كان يقطن في شارع بهاباني دوت
باستمرار . صحيح أن زيارتي كانت كثيرة ، لكن الحديث لم يكن
كذلك ، ذلك أنني كنت في عمر السماع لا الحديث . تمتيت أن ندخل
في نقاش ، لكن الحياء غلب قدرات حديثي . أحياناً يأتي أخوه الأكبر
سانجيب بابو إلى هناك ويضطجع على وسادة . كان المنظر يبهجني لأنه
أنيس كريم الروح يستمتع بالحديث ومن المطرب سماعه . لا بد لمن

اطلعوا على نثره أنهم لاحظوا سلاسة خفتها وبهجتها كحديث مرح
مفعم بالحوية . قلة تتحلى بهبة الحديث هذه والأقل الفن لترجمتها في
الكتابة . كان هذا وقت صعود شهرة بانديت ساشادهار الذي سمعت
عنه أول مرة من بانكيم بابو . إذا أسعفتني الذاكرة جيداً ، فإن بانكيم
بابو هو الذي وقف وراء تقديمه للجمهور . انتشرت في كل البلاد
محاوَلته الملفتة للنظر في إحياء هبة العقيدة الهندوسية التقليدية
بمساعدة العلم الغربي . كان الشيوصوفيون قد مهدوا السبيل قبل ذلك ،
لكن هذا لا يعني أن بانكيم بابو قد وجد نفسه في معتقد الطائفة
الجديدة . لم يظهر تأثير لا يمكن تخيله لساشادهار عليه في عرضه
للهندوسية في براشار .

كنت حين ذاك أخرج من عزلتي كما تظهر مساهماتي في هذه
المنابر . كان بعضها قصائد هجائية والبعض مسرحيات ساخرة
والأخرى رسائل للصحف . هبطت للحلبة من سحب العاطفة
ورحت أجادل بجدية حقيقية .

في حمى وطيس المعركة تهجمت على بانكيم بابو بشكل كره . بقي
تاريخ تلك الأيام مسجلاً في براشار وبهاراتي ولا حاجة لإعادته هنا .
عندما وضع حداً لفترة العداء هذه ، كتب لي بانكيم بابو رسالة
أضعتها مع الأسف ، ولو كانت موجودة واطلع عليها القاريء
لاستطاع أن يرى بنفسه كرم أخلاق بانكيم بابو العالية وتقبله لسعة هذه
الحكاية المؤسفة .

هيكل السفينة البخارية العتيق

ذهب أخى جيوثيريندرا بعد ظهر يوم وقد أغراه إعلان في صحيفة إلى مزاد علني ، وعاد ليخبرنا بأنه اشترى هيكل سفينة بخارية فولاذية عتيقة بسبعة آلاف روبية ، وكل ما تحتاجه الآن محركاً وبعض المقصورات لتصبح سفينة كاملة .

لا بد أن أخى فكر أن من العار على مواطنينا أن يطلقوا أعلامهم وألستهم دون أي حركة لإقامة خط بحري واحد . رويت من قبل كيف حاول إشعال الكبريت من أجل بلاده دون أن يفلح أي حك في إشعالها . وأراد أن يشغل آلة نسج كهربائية أيضاً ، وبعد كل هذه صنع قطعة قماش صغيرة ، قبل أن تتوقف الآلة . الآن أراد فتح خط ملاحية هندي يبحر جيئةً وذهوباً ، لذا اشترى هذا الهيكل القديم الفارغ . في الوقت المتوقع امتلأت السفينة ليس بالمحركات والمقصورات فقط ، بل بالخسارة والخراب أيضاً ، اللذين حلا به وحده ، في حين أفادت التجربة البلاد بأسرها . بذرت تلك الأرواح التي تفتقر إلى الحس التجاري وإجراء الحسابات المسبقة المدروسة ، وروت حقول أعمال

البلاد بأنشطتها . رغم أن الفيضان يخمد بنفس سرعة طوفانه ، إلا أنه يخلف الطمي الخصب الذي يغني التربة . لا يفكر أحد في هؤلاء حين تدنو ساعة الحصاد ، غير أن من راهنوا ببشاشة وخسروا كل ما يملكون في الحياة ، من المرجح أن لا يكتثروا لخسارة ثانية في مماتهم وهي النسيان .

في جهة كانت شركة فلوتيللا بإدارة بريطانية ، ويقابلها في الجهة الأخرى أخي جيوتيريندرا . قد يذكر أهالي كولنا وباريسال روعة وطيح معركة الأساطيل . تحت وطأة المنافسة أضيفت باخرة للأخرى ، وتراكمت خسارة على خسارة وتضاءل الدخل حتى أصبح طبع التذاكر لا يستحق العناء . أشرق عصر ذهبي في الخط الواصل بين كولنا وباريسال ، ليس لأن الركاب كانوا يسافرون بالهجان ، بل لأن المرطبات قدمت لهم دون مقابل أيضاً . من ثم تكونت جماعة من المتطوعين يحملون الأعلام ، وينشدون الأغاني الوطنية . ويرافقون المسافرين على متن البواخر الهندية . لذا لم تكن هناك ندرة في المسافرين ، إلا أن الاحتياجات الأخرى تضاعفت بسرعة فائقة .

لم يتأثر الدخل بالحماس ، وفي حين تعاظم الحماس الوطني فإن ثلاثة ضرب ثلاثة استمرت تساوي تسعة بثبات ، لكن على الجانب الخاطيء من الميزانية العمومية .

إحدى المحن التي تلاحق عديمي الحس التجاري مثل أخي هي رغم إمكانية قراءة أفكارهم ككتاب مفتوح ، إلا أنهم لا يتعلمون أبداً قراءة

شخصيات الآخرين . وحيث يضيعون أعمارهم وكل مصادر أموالهم
ليكتشفوا ضعفهم ، لاتسنع الفرصة لهم ثانية ليستفيدوا من التجربة .
من المؤكد أن الآخرين من المسافرين الذين تقدم لهم المرطبات بالمجان ،
إلى العاملين الذين لم تبدُ عليهم أي بوادر مجاعة ، يكسبون ، غير أن
أكبر المستفيدين كان أخي لأنه واجه الخراب بمتهى البسالة .

أبقتنا نشرات النصر أو المصائب اليومية التي كانت تصل من ساحة
المعركة في حُمى الإثارة ، حتى جاءت الأخبار يوماً بأن الباخرة
سواديشي سدت جسر هاوراه وغرقت . عندها تجاوز أخي حدود
مصادره المالية تماماً ولم يبقَ له إلا تصفية المشروع .

الموتى

في غضون ذلك جاء الموت الذي لم أواجهه مطلقاً إلى عائلتنا . كنت لا أزال طفلاً حين رحلت أُمي . كانت متوقعة لوقت طويل ، ولم تكن حتى على علم بأن مرضها قد أصبح مميتاً . عندما كبرنا ، صارت تنام على سرير منفصل في نفس الحجرة معنا . أخذت أثناء مرضها في جولة نهرية بقارب وحين عودتها أعدت لها حجرة منفصلة في المقصورات الداخلية من الطابق الثالث .

في ليلة وفاتها ، كنا نغط في نوم عميق في حجرتنا في الطابق السفلي ، وفي ساعة لا أذكرها ، ركضت مريتنا العجوز وهي تنشج بالبكاء «آه ، يا صغاري ، لقد فقدتم كل شيء» . زجرتها زوجة أخي وقادتها إلى الخارج لتخفف عنا وقع الصدمة المفاجئة في جوف الليل البهيم . شعرت بقلبي يهوي وأنا نصف مستيقظ ولم أفقه ما حدث . حين أخبرنا بموتها في الصباح ، لم أدرك ما عني كل ذلك لي .

خرجنا إلى الشرفة ورأينا أُمي مسجاة على سرير في ساحة البيت ، ولا شيء من ملامحها يوحى بأن الموت مرعب . كان مظهرها في ضوء

ذلك الصباح بهياً مثل رقاد ساكن هاديء ، والهوة الفاصلة بين الحياة
وانعدامها لم تتوضح لنا .

حين أخرجت جثتها من البوابة الرئيسية وتبعنا الجنائز إلى المحرقة ،
عندها فقط سرت في كياني رعشة حزن للتفكير بأن أمي لن تؤوب
أبدأ عبر هذا الباب وتأخذ مكانها المعتاد مرة أخرى في تدبير أمور
البيت .

مر اليوم بطيئاً ، رجعنا من المحرقة ، وحين دلفنا زقاقنا نظرت صوب
حجرات أبي في الطابق الثالث . كان لا يزال جالساً في الشرفة
الأمامية ، خاشعاً في صلاته دون حراك .

تكفلت أصغر زوجة من زوجات إخوتي بالأطفال اليتامى . اعتنت
بطعامنا ولباسنا وكل حاجتنا الأخرى ، وبقيت قريبة منا دائماً كي لا
نشعر بوحدة الخسارة . إحدى صفات الأحياء هي القوة على الشفاء مما
يتعذر ترميمه ، ونسيان من لا يعوضون . تكون هذه القوة في أوجها
في أوائل العمر ، لذا لا تدلف أي طعنة عميقاً ، ولا يدوم جرح أبداً .
لذا لم يترك ظل أول موت أصابنا ظلاماً خلفه . رحل كما أتى بخفة ،
مجرد ظل ليس إلا .

فيما بعد ، سائراً كطائش في أوائل الربيع ، وقليل من الياسمين
نصف المفتوح مربوط في طرف شالي الموسلين ، كانت لمسة أنامل أمي
تعود لي حين أضرب جبينني بالبراعم الناعمة المدورة مستدقة الرأس ،
وأحس بجلاء أن حنان رؤوس هذه الأنامل هو نفس النقاء الذي يزهر

كل يوم في براعم الياسمين . خالطني شعور أن هذا الحنان موجود في الأرض بوفرة غير محدودة ، عرفنا ذلك أم لم نعرف .

ظلت معرفتي بالموت الذي عرفته في الثالثة والعشرين دائمة ، يرجع صدى ضربتها مع كل وفاة لاحقة بإكليل من الدموع أكبر . يمكن للطفل تجاوز أعظم المحن ، لكن مع تقدم العمر لا تعود المواجهة سهلة . كان علي مواجهة الصدمة ذلك اليوم كاملة .

ليست عندي فكرة حول إمكانية وجود أي انقطاع في تعاقب أفراح وأتراح الحياة ، فأنا لم أر شيئاً وراء الحياة ، وأقبلها كحقيقة مطلقة .

يوم جاء الموت على حين غرة وأحدث صدعاً في نسيج الحياة الهائلة ذهلت تماماً . بقي كل ما حولي من الأشجار والتراب والماء والشمس والقمر والنجوم حقيقة راسخة جامدة الشعور كما كانت سابقاً ، والإنسان الذي كان أيضاً مثلها هنا وأكثر حقيقة وصدقاً بالنسبة لي عبر ألف نقطة اتصال بالحياة عقلاً وقلباً ، اختفى في لحظة مثل حلم . ما أعقده من تناقض !! كيف لي تقبل ما بقي عوضاً عما مضى ؟ !

استمر الظلام الرهيب الذي كشف لي عبر هذا الصدع في إغوائي ليلاً نهاراً والزمن في مساره . أعود إليه دائماً وأحرق فيه متسائلاً ما الذي بقي ليعوض ما رحل . غير حقيقي ، وغير الحقيقي عدم . لذا تستمر محاولتنا دائماً كي نجد شيئاً حيث لا نرى شيئاً .

تماماً مثلما تمد نبتة صغيرة محصورة في الظلام نفسها متسلقة لتصل إلى النور ، كذلك الروح عندما يحيطها الموت بالعدم تحاول وتحاول أن

تشب إلى النور الدائم . أي حزن أعمق من الوقوع في فخ الظلام الذي يمنع المرء من أن يجد سبيله خارجه ؟

مع ذلك ، في غمرة الأسى غير المحمول ، تتلأأ لمعات الفرح في عقلي على نحو متقطع بشكل يثير دهشتي . فكرة أن الحياة ليست شيئاً دائماً ساعدتني على تنوير ذهني ، وأنا لسنا سجناء إلى الأبد خلف حائط من الحقائق المتحجرة المشاعر هي الفكرة التي استمرت في الصعود بلا وعي أكثر من غيرها في دقات الفرح . أقلقني أنني أجبرت على إطلاق ما كان بحوزتي ، لكن في نفس الوقت غمرني سلام عظيم عندما رأيتها كحرية مكتسبة .

يوازن الموت عبء الوجود الدنيوي الطاغى ، لذا لا يسحقنا . ليس على الإنسان أن يتحمل ثقل الحياة الخالدة الرهيب . استبد بي هذا الشعور ذلك اليوم مثل كشف رائع . أصبح لجمال الطبيعة معنى أعمق بفضل إغراء العالم المحرر . وهبني الموت القدرة الصائبة لرؤية جمال العالم الكامل ، وحين رأيت الكون وفق هذه الخلفية الفكرية ، سلب لبي .

في تلك الفترة تفشت عندي من جديد غرابة الأفكار والسلوك . كنت أناشد للانصياع للعادات والتقاليد المرعية ، كما لو أنها واقعية وحقيقية ، في حين كانت تبث الضحك بي . لم أستطع أخذها بجدية . تبخر من ذهني غماماً عبء التوقف لأخذ ما يظنه الآخرون بي في عين الاعتبار . ذهبت إلى متاجر بيع الكتب الراقية مكسباً بقطعة

قماش خشنة ملفوفة حول جسدي ، وخف في أقدامي الحافية فقط .
في الحر والبرد والمطر ، كنت أنام خارجاً على الشرفة في الطابق
الثالث ، حيث كنت والنجوم نحدق بعضنا ببعض ولا نفغل نحية
الفجر .

لا علاقة لهذه الفترة بأي مشاعر زهد . كانت إجازة مرح صاحب
صادفت اكتشاف المعلم «الحياة» -الذي عصاه أسطوره- وتحرير نفسي
من قوانين مدرسته التافهة . إذا وجدنا حين نستيقظ في صباح جميل
أن الجاذبية تناقصت إلى كسر ضئيل من قوتها ، هل نبقي سائرين
برزانة على الطريق الرئيسي؟ ألا نفضل القفز من فوق البيوت المتعددة
الطوابق من أجل التغيير ، أو نثب حين نأتي إلى بعض المعالم الأثرية
طائرين ولا نتعب أنفسنا بالسير حولها؟ لذا وقد تحررت قدامي من
جرجرة ثقل الحياة الدنيوية ، كان من المتعذر عليّ التقيّد بالأعراف
السائدة .

التمست ، وأنا على الشرفة وحيداً في الليل البهيم ، طريقي كأعمى
محاولاً أن أجد بعض الدلالات التي تقود إلى بوابة الموت ذات الحجر
الأسود . في الصباح ، حين أفتح عيوني ، يشعرني النور الساقط على
فراشي الذي لا يستره حجاب بأن الضباب الرقيق الذي يغلف عقلي
كان شفافاً بحق ؛ وحالما ينقشع الضباب تكتسي التلال والأنهار
والغابات حلة جديدة وتبدو صورة الوجود المشبعة بالندى المفروشة
أمامي جميلة منعشة .

الأمطار والخريف

وفق التقويم الهندوسي يحكم كل سنة كوكب معين . لذا ، في كل فترة من حياتي ، يأخذ فصل ما أهمية خاصة . أكثر ما أذكر عندما أعيد النظر في طفولتي هي الأيام الماطرة . بوسعي رؤية الأمطار التي ساقتها الرياح تطفح على أرض الشرفة وأبواب الغرف المصطفة المقفلة ، ويرري الحادمة العجوز التي تغسل الأطباق قادمة من السوق ، سلتها منخلة بالخضروات ، تخوض في الوحل وهي مبتلة بالمطر ، وأنا أعدو على الشرفة بنشوة دون غاية أو منطق .

شيء آخر أستعيده : في المدرسة ، في فصل يقوم على صف من الأعمدة يحيط الحصار بها كالأشاشات . يتلاحق الغمام متتابعاً بعد الظهيرة ويتراكم الآن في السماء . نرقب المطر يهطل مدراراً ، يهزم الرعد بين فينة وأخرى طويلاً مدوياً ؛ تشق امرأة مجنونة السماء من طرف إلى آخر بمسامير البرق . تهتز الجدران القماشية بفعل الريح كما لو أنها ستطير معه . تمنعنا الظلمة من القراءة ، فيسمح لنا المعلم بإغلاق الكتب .

ندع العاصفة تقصف وتزمر عوْضاً عنا ، وأرجلنا المتدلّية تتأرجح .
 يطير فكري إلى نجد قصي بلا نهاية يمر فوقه أمير القصص الخرافية .
 أذكر أيضاً جوف الليل البهيم في شهر شرافان ، وطققة الأمطار تنسل
 في نومي لتنهني راحة أعمق من السبات العميق . في فترات استيقاظي
 القصيرة أصلي لأن يستمر المطر للصباح ليغمر باحة بيتنا ، وتطفو المياه
 حتى أعلى درجات حوض الاستحمام . لكن في العمر الذي أتكلم
 عنه ، كان الخريف ، لا الفصل الماطر ، الملك المتوج فوق كل الشبهات .
 يمكن لحياتي أن تري هنيئة تحت سماء أشوين الصافية الشفافية ، وفي
 شعاع شمس الخريف الذهبي المصهور المنعكس بنعومة من الخارج
 الأخضر المنعش الندي . كنت أذرع الشرفة جيئةً وذهوياً وأكتب ببرأغا
 جوجيا الأغنية القائلة :

في نور هذا الصباح

لا أدري ما يرغبه قلبي .

ينصرم النهار ببطء وثقال ، يقرع الجرس القرصي في البيت معلناً
 الثانية عشرة ظهراً ، يتغير المزاج ، غير أن ذهني يبقى مشبعاً بالموسيقى
 ولا حيز فيه للعمل أو أداء الواجب وأغني :

أي لعبة عديمة الجدوى هذه ، يا فؤادي ، في الساعات الكسولة؟ بعد
 الظهر أضطجع على ملأه بيضاء مفروشة على أرض حجرتي
 الصغيرة ، أحاول أن أرسم في دفتر رسم ، لا بالسعي المضني للإلهام ،
 بل مجرد عبث بأمنية أن أرسم صوراً . أهم جزء يبقى في الدهن ، ولا

خط منه يوضع على الورق . في تلك الأثناء يرشح بعد ظهيرة الخريف
الساكن عبر جدران حجرتي ويطلها ككوب بالذهب المسكر .
لا أدري لماذا يتراءى لي أن كل أيامي حين ذاك كانت وكأنها تحت
سما الخريف هذه ومضاء بضوء الخريف هذا ، الخريف الذي أنضج
أغنياتي كما ينضج الحنطة للزارعين ؛ الخريف الذي ملأ مخزن ترفي
بالبهاء ؛ الخريف الذي غمر عقلي المستريح بالمتعة المفرطة والقصص
والأغاني الخلافة .

الفرق الأساسي بين فصل الأمطار في طفولتي وخريف شبابي هو أنه
في الأول حضنتني الطبيعة بحميمية وأمتعني بفرق موسيقاها
العديدة ، وتبرجها الملون وموسيقاها الخليطة الأنواع ، في حين كان
الاحتفال في الثاني ينبع من داخلي . تقهقر لعب السحب وأشعة
الشمس إلى الخلفية واحتلت العقل همهمات الفرح والأسى . هذه
الأمور أضفت على زرقة سما الخريف مسحتها الكثيرة وغلفت أنفاس
النسيم بالحدة .

وصلت قصائدي الآن أبواب عقول الرجال . لم يعد من الممكن لها
أن تأتي وتذهب كما تشاء ؛ كان ثمة باب تلو باب وحجرة داخل
حجرة . كم مرة يتوجب علينا أن نعود بلمحة نور من نافذة فقط ،
وصوت المزامير وبعض آلات الفلوت أو شيهناي ، في مكان ما داخل
بوابات القصر يتردد في آذاننا ! على العقل أن يعامل بالعقل ، والإرادة
أن تكون على علاقة طيبة مع الإرادة . يجب التغلب على العديد من

العقبات قبل أن تصبح هناك إمكانية للصلة الحقيقية . تندفع الحياة
بغزارة وتحيط بهذه العقبات ، تزيد وترغد بالضحك والدموع ، ترقص
وتدور في دوامات ولا تسمح لأحد أبداً أن يحدد مجراها .

أنغام عالية وأنغام خفيضة

كاري أو كومال -أنغام عالية وأنغام خفيضة- هو سيرناد* من الشوارع قبل أن يقطن الإنسان في البيوت ، التماس يسمح له بولوج واحتلال مكانة في بيت الغموض ذلك .

هذا العالم حلو -لاأريد أن أموت

أود أن أحيأ في تيار الإنسانية

هكذا يكرس الفرد نفسه للحياة .

حين شرعت في رحلتي الثانية إلى إنجلترا ، تعرفت على ظهر الباخرة على أشوتوش شودهوري . كان قد حصل على شهادة الماجستير من جامعة كلكتا وفي طريقه إلى إنجلترا للالتحاق بجامعة المحامين . قضينا سوياً الأيام التي استغرقتها رحلة الباخرة من كلكتا إلى مدراس فقط ، لكن بدا واضحاً أن عمق الصداقة لا يعقد على طول المعرفة . جذبني إليه في ذلك الوقت القصير ببساطة قلبه الطبيعية لحد بدت صداقتنا وكأنها دائمة الوجود .

* سيرناد : لحن يغنى في الهواء الطلق ، خاصة تحت نافذة الحوية (المترجم)

حين عاد أشو من إنجلترا ، أصبح واحداً من أفراد العائلة . لم يكن الوقت أو الفرصة قد سنحتا له للتغلب على كل العقبات التي تحيط بمهنته ولينخرط فيها تماماً . لم تكن أكياس الذهب ونقود زبائنه قد أرخت الخيوط التي تشدها . وكان أشو لا يزال جامع عسل متحمس من خلایا الأدب المختلفة . لم تكن لروحه التي عطرت بأريج الأشياء الغريبة المجهولة الاكثية من وراء المحيطات ، أي صلة بعفن جلد المكتبة الفاخر ، استمتعت عند تلبية دعوته بكثير من النزاهات الربيعية في فرجات الغابات النائية .

كان يتحلى بدوق خاص حيال الأدب الفرنسي . كنت حين ذاك أكتب القصائد التي نشرت فيما بعد تحت اسم «أنغام عالية وأنغام خفيضة» . تبين أشو شهماً بين كثير منها والقصائد الفرنسية القديمة . كان العنصر المشترك ، وفق رأيه ، إغواء الشاعر بلعبة الحياة ، والذي يجد تعبيرات مختلفة في كل قصيدة . القوة الحيوية في الحالتين هي التوق غير المشبع للالتحاق بركب الحياة الواسع .

«سأرتب وأنشر هذه القصائد لك» قال أشو ، وعليه عهدتُ إليه بالمهمة . اعتبر القصيدة التي بدايتها «العالم حلوا» تمثل الفكرة الرئيسية في هذه السلسلة من القصائد ، لذا وضعها في البداية .

لعله كان على صواب . في الطفولة ، عندما كنت سجين البيت ، كنت أنظر بحزن من فتحات حاجز شرفة شقة السقف الداخلية وأهب قلبي للطبيعة . في الشباب ، جذبني عالم الرجال وأثر عليّ بقوة .

كنت لامتمتيا ونظرت إليه من بعد . استنجد عقلي الواقف على شفير الحياة ببحار مبحر عبر الأمواج بتلويع الأيادي بلهفة ، لأن حياتي كانت تتطلع للشروع في رحلتها .

ليس من الصحيح أن عزلتي الواضحة كانت بمثابة عائق أمام انغماسي في التيار الاجتماعي . لا ألس أي دلالة من مواطني بلادي النشطين اجتماعياً طوال حياتهم تنم عن استمتاعهم بالحياة بفضل هذه الألفة أكثر مني . للوجود الاجتماعي في بلادنا صفافه المتغطرة ، وسلسلة درجاته ومياهه الداكنة الهادئة التي تظللها الأشجار القديمة ذات الأعصان المورقة التي يسجع الوقواق أغنيته القديمة الساحرة . لكن ، مع ذلك ، المياه آسنة . أين تيارها ، أين أمواجها ، ومتى يندفع المد من البحر؟ !

هل سمعت صدى أنشودة الشكر والتسبيح المظفرة لها يعلو ويهبط موجة إثر موجة ، يشق طريقه عبر جدران الصخور إلى البحر ، إلى الحي القائم خلف زقاقنا؟ كلا!! في عزلتي ، اغتظت بكل بساطة لأنني لم أتلّق دعوة إلى المكان الذي يقام فيه احتفال العالم .

ربما تغلب الكآبة العميقة على الإنسان في العزلة الحسية الكسولة إذا حرم من الاتصال بالحياة . ناضلت دائماً بألم للتحرر من مثل هذا القنوط . رفض عقلي الاستجابة لسموم الحركات السياسية الرخيصة المجردة ، كما كانت ، من أي حس وطني والمطبقة الجهل بالبلاد وغير المبالية بخدمة الوطن الأم . لقد عذبني نفاذ الصبر الغاضب وعدم

الرضا غير المحمول إزاء نفسي وكل ما حولي . وأكثر من ذلك سألت نفسي إن كنت بدوياً عربياً !!

في أجزاء العالم الأخرى ، لا نهاية للحركة وصخب وعريضة مرح الحياة . نحن نقف في الخارج كالمسولات وننظر بنوق إلى الداخل متى كان عندنا ما نزين به أنفسنا لنلحق بركب الآخرين ؟ فقط في أرض حيث يسود العداء المسبب للشقاق بقوة ، وتفرقنا العقبات الصغيرة التي لا تخص ، يبقى في حياة الإنسان ذاك التوق للتعبير عن حياة أرحب غير مشبعة . أجهدت نفسي في شبابي لأصل إلى الإنسانية ، كما كنت أتوق في طفولتي إلى العالم الخارجي من داخل الدائرة الطبشورية التي رسمها حولي الخدم ؛ ما أندره وأبعده ، وما أصعب الوصول إليه ! رغم ذلك ، إذا عجزنا عن الاحتكاك به ، إذا لم تهب نسمة منه ، ولا جرى تيار خارجاً ، ولا درب مفتوح على ممر الرحالة الحر ، عندئذ لن تتحرك الأشياء الميته المتراكمة حولنا ، بل تستمر في التراكم حتى تحجب كل أثر للحياة .

أثناء سقوط الأمطار توجد سحب داكنة وزخات فقط ، في الخريف هناك لعبة الضوء والظل في السماء ، لكن ثمة شيء آخر أيضاً ، وعد القمح في الحقول . كان الفصل الماطر في حياتي المهنية شبيهاً بغموضه ، وتشويهه رطوبة بعاطفة طنانة . كانت رسالتي ضبابية وإيقاعي مشوشاً غير متماسك . لكن في «أنغام عالية وأنغام خفيفة» الخريفية ، لم تظهر الألوان في السحب فقط ، بل ثمت المحاصيل في

الأرض ، ثمة محاولة واضحة لا لبس فيها في تنوع اللغة والوزن لتأسيس صلته بالعالم الحقيقي .

وهكذا أغلق فصل آخر . انتهت الأيام الجدلثة في الاختلاط مع العالم بحرية وإرادة . على رحلتي الآن أن تكمل في أماكن عيش البشر ربما لن ينظر للخير والشر ، والفرح والكرب ، التي تواجه الحياة كصور . ما الجلبة التي تجري هنا؟ يا له من بناء وتدمير ، اتحاد وصراع . لا أملك القوة لكشف وأصف الفن الكامل الذي قادني به دليلي بمتعة لتخطي كل المصاعب والخصومة وعدم الاستقامة للوصول إلى تحقيق أعظم معنى داخلي لحياتي . وإذا عجزت عن توضيح هذا اللغز ، فإن كل ما قد أحاول شرحه سيؤدي بالتأكيد إلى سوء فهم في كل خطوة . إن تحليل صورة هو جمع الغبار فقط ، لا روح الفنان .
لذا وقد صحبتكم إلى باب ملاذي ، فإني أستاذن من قرائي .

شرح مفردات

- بابر : لقب رسمي للمخاطبة يتم عن الاحترام . يقارب إلى حد ما لقب «السيد» .
- بولز : شخص طائش متهور يرفض الأعراف السائدة ، ويولي اهتمامه الأول للاتصال المباشر مع الله بمساعدة الأغاني والتخدرات . يوجدون في شمال الهند ويشبهون في لباسهم الكهنة البوذيين أكثر من السائنياسي الهندوس .
- جياتري : قصيدة من الريح فيدا وتعتبر أقدسها ، وموجهة إلى إله الشمس سافيتري .
- كادامبا : زهرة استوائية صفراء شجرتها مقدسة عند كيرشنا .
- لوشي : خبز رقيق مدور من الطحين والماء فقط عند وضعه على النار ينتفخ كالبالون ، يقدم في الأعراس والاحتفالات وهو طعام الطبقة الرفيعة في البنغال .
- ماجه : الشهر العاشر من السنة البنغالية ويصادف من منتصف يناير إلى منتصف فبراير .
- بان : مزيج من عدة نباتات وأشجار يلف في ورق شجر التبوتول ويضغط في القم . شائع الاستعمال في الهند كمهضم بعد الوجبات .
- بيامار : قصيدة طنانة من الشعر البنغالي مؤلفة من بيتين ، بقيت سائدة حتى منتصف القرن التاسع عشر .
- تابنور : آلة موسيقى وترية من أربعة أوتار .
- ميثيلي : لغة مختلفة عن البنغالية ولكن ليس بشكل كبير وأساسي .
- بوستي : في الأصل تعني الجزء غير المسكون من قرية أو بلدة . في أيام طاغور كانت تعني منطقة فقيرة من الأكواخ المكتظة بالسكان وفيها أزقة ضيقة تقع على جانب الطرقات ، يسكنها الخدم والفقراء . لم تكن بعيدة عن المناطق الغنية . الآن تعني الكلمة الحي الفقير القدر .

الفهرس

صفحة		صفحة	
127	بهاراتي 23	3	1 تمهيد
131	أحمد أباد 24	6	2 التعليم بدأ
133	المجلترا 25	10	3 داخل المنزل وخارجه
148	لوكن باليت 26	22	4 سلطة الخدم
151	القلب المحطم 27	27	5 المدرسة النظامية
159	الموسيقى الأوروبية 28	31	6 نظم الشعر
162	فالميكى براتيهها 29	34	7 الدروس المتنوعة
168	أغاني المساء 30	40	8 نزهتي الأولى
172	مقالة في الموسيقى 31	44	9 ممارسة الشعر
176	قرب النهر 32	47	10 سريكانثا بابو
179	مزيد عن أغاني المساء 33	51	11 نهاية درسنا البنغالي
182	أغاني الصباح 34	54	12 البروفسور
192	راجيندرا لال ميترا 35	61	13 أبي
196	كاروار 36	69	14 رحلة مع أبي
199	ثأر الطبيعة 37	80	15 في الهملايا
202	صور وأغنيات 38	87	16 عودتي
204	فترة طارئة 39	96	17 دروس البيت
208	نكيم شاندر 40	101	18 محيطي المنزلي
212	هيكل السفينة البخارية العتيق 41	108	19 رفاق الأدب
215	الموتى 42	115	20 الشر
220	الأمطار والخريف 43	117	21 بهانوسينجه
224	أنغام عالية وأنغام خفيفة 44	120	22 الوطنية

المجمع الثقافي

Cultural Foundation

ص. ب. ٢٣٨٠ - أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة - هاتف : ٢١٥٣٠٠
P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U. A. E. - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION

المجمع الثقافي

Cultural Foundation

ص. ب. ٢٣٨٠ - أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة - هاتف : ٢١٥٣٠٠
P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U. A. E. - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION